سعد

فى حياته الخاصة

تأليف

كريم ثابت

للمزيد من الكتب
https://www.facebook.com/groups/histoc.ar
لقراءة مقالات فى التاريخ
https://www.facebook.com/histoc
https://histoc-ar.blogspot.com

سعد

في حياته الخاصة

تأليف

كريم خليل ثابت

٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢٩

اهداء الكتاب

الى ام المصريين

شريكة سعد في جهاده

فصول الكتاب

الفصل الاول — سعد في حداثته

من صفحة ٥ الى صفحة ٢٢

الفصل الثاني — سعد في بيته

من صفحة ٢٧ الى صفحة ٦٥

الفصل الثالث — سعد من جميع نواحيه

من صفحة ٧١ الى صفحه ٩٦

الفصل الرابع — سعد في آخر أيامه

من صفحة ١٠١ الى صفحة ١١٢

كلمة للمؤلف

لا أطمع في أن يقال عن الصفحات التي سيطلع عليها القارىء في ما يلي انها كتاب يتضمن سيرة الفقيد المعظم ولكنها صفحات مبعثرة تتناول بإيجاز ناحية من نواحي حياته الحافلة بجلائل الاعمال وأعني بها ناحية حياته الخاصة . . . . هي معلومات مختلفة وقفت عليها اما من سعد نفسه أو من أقرب الاشخاص اليه وقد نشرتها في مقالات شتى اما في مجلتي «العالم» أو في «كل شيء والعالم» بعد اندماجهما أو في «المصور» .... وقد أعدت طبعها في هذه الكراسة لتبقى ذكراً لسعد في هذا اليوم الذي تحتفل فيه البلاد بذكره . تغمده الله برحمته وجزاه في جنته تعداد حسناته في خدمة وطنه

كريم ثابت

القاهرة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢٩

سعد في رئاسة الوزارة

سعد فى حداثته

[انتهز المؤلف فرصة وجود حضرة صاحب المعالي محمد فتح الله بركات باشا في « منية المرشد » في هذا الصيف فزاره في شهر اغسطس الماضي (١٩٢٩) وقام بهذا البحث عن حداثة الفقيد العظيم المغفور له سعد زغلول باشا وقد زار لأجل ذلك ايضاً بلدة « ابيانه » التي ولد فيها الزعيم الاكبر وحادث بعضاً من الذين عاصروه فيها ثم ضم اقوالهما الى ما وقف عليه من معالي فتح الله باشا في هذا الصدد]

موقع بلدة ابيانه

تقوم بلدة ابيانه الآن على شاطىء فرع رشيد من جهته الشرقية وفي شمال مدينة فوه وهي في موضعها الحاضر تشبه موضع بيت الامة بالنسبة لنهر النيل وترجع في ادارتها الى مركز فوه من أعمال مديرية الغربية

وقد كانت ابيانه في عصر الفراعنة الاقدمين شطراً من بحر الروم المعروف الآن بالبحر الابيض المتوسط فلما انحسر الماء عنها برسوب طمي النيل ظهرت قطعة من الارض بشكل جزيرة في البحر فانشئت عليها تلك البلدة وكانت تعتبر يومئذ من ضواحي مدينة متليس العظيمة حيث تقوم اليوم مدينة فوه، وكان فرع النيل الغربي الذي هو فرع رشيد الآن والمعروف قديماً بالفرع البليوتيني ينتهي الى هذه المدينة قبل ظهور مدينة رشيد وبلغ من عمرانها في القرن الخامس عشر للميلاد أنها صارت أعظم مدينة في مصر بعد القاهرة حتى ان القناصل الاجانب اتخذوها مقاماً لهم بعد الفتح العثماني

الوصول الى ابيانه

وقد سلكت للوصول الى ابيانه طريق دسوق بالسيارة من دمنهور فبلغتها بعد مسيرة ساعة ونصف ساعة ولما كان معالي فتح الله بركات باشا يمضي جانباً من فصل الصيف في اراضيه

الواسعة في منية المرشد ، وهي تبعد عن ايبانه نحو عشر دقائق بالمركبة ، استصوبت أن استهل بحثي بزيارة معاليه اولاً لأقف منه على ما تحويه حافظته النيرة من المعلومات والذكريات واثقاً من انها ستكون أكبر معين لي على تحقيق غايتي لما كان بين معاليه والمغفورله خاله العظيم من روابط الصداقة والالفة المتينة ويرجع تاريخ هذه الصلة الوثيقة التي كانت تربط أحدهما بالآخر الى الايام التي كانا يلعبان فيها مع المغفور له احمد فتحي زغلول باشا اما في دار آل بركات في منية المرشد أو في دار آل زغلول في ايبانه نفسها ، فرحب معاليه بالفكرة التى حدت بي الى زيارته وأفاض في الافضاء اليَّ بذكرياته وكان كلما استرسل في كلامه ازداد اعجابي بمقدرته على امتلاك ناصية حديثه وهو ما يعترف له به خصمه قبل صديقه

اسرة زغلول في ايبانه

وكان أول ما اهتممت بمعرفته من فتح الله باشا هل عنده أو عند احد غيره من أفراد اسرته أو اسرة خاله ما يستدل منه على اصل اسرة زغلول أو على تاريخ السنة التى نزحت فيها الى ايبانه فاجابني سلباً ولكن يؤخذ من قرائن شتى ان اسرة زغلول ليست قديمة العهد في ايبانه وان تاريخها فيها لا يرجع الى ابعد من قرن ونصف قرن على الاكثر اما موطنها قبل ذلك العهد فمجهول

فسألت فتح الله باشا هل يعلم لماذا سمي سعد بهذا الاسم فأجاب بأنه علم بعد البحث ان أول رجل من اسرة زغلول ظهر

في ابيانه كان اسمه سعد فقلت وهل كان سعد يحب هذا الاسم فقال لا اذكر انه أبدى مرة واحدة ارتياحه اليه بل انه كان يتضايق منه في شبابه اذ يظهر ان سعد الاصلي لم يكن خليقاً بهذا الاسم

وذكرت لمعالي محدثي ان بعضهم يدعي ان سعد باشا لم يزر ابيانه إلا مرة واحدة بعد رحيله عنها وهو شاب وذلك لما خف اليها في سنة ١٩١٠ ليكون في استقبال سمو الخديوي السابق عند زيارته لها. فقال فتح الله باشا على الفور: «هذه رواية لا تطابق الحقيقة بتاتاً فان سعد باشا كان يكثر من تردده على مسقط رأسه كلما سمح له وقته بزيارة أهله فانه لما كان يتلقى العلم في الازهر الشريف كان يجيء الى ابيانه في كل عطلة صيفية مستصحباً معه جماعة من اصدقائه أمثال الشيخ محمد عبده وقاسم امين وابراهيم اللقاني والشيخ عبد الكريم سلمان الذي صار فيما بعد مفتشاً عاماً للمحاكم الشرعية وغيرهم. ولما اشتغل بالمحاماة كان لا ينقطع عن زيارة ابيانه من وقت لآخر حتى اذا تربع في كرسي الوزارة زارها غير مرة ورافقه اليها في احدى تلك المرات المغفور له مصطفى فهمي باشا وأقام معه فيها سبعة أيام»

سعد في الجبة والقفطان

فسألت فتح الله باشا عن أقدم ذكرى يتمثلها في مخيلته للمغفور له سعد باشا فأجابني بقوله ان أقدم صورة مرتسمة في ذهنه للفقيد العظيم هي منظره وهو يتأهب للرحيل الى القاهرة لكي

ينتظم في سلك الازهر الشريف بعد ما انتهى من حفظ القرآن الكريم في الكتاب الوحيد الذي كان موجوداً في ابيانه في ذلك الحين وكان رحمه الله يلبس يومئذ الجبة والقفطان والعمامة ، فانتهزت هذه الفرصة لاسأل معالي محدثي عن التاريخ الذي خلع فيه سعد باشا الملابس العربية واستبدلها بالملابس الافرنجية فأجاب قائلا : « ان المرجح جداً ان سعد باشا استعاض عن زيه العربي بالزي الافرنجي قبل وقوع الثورة العرابية بسنة »

فقلت لفتح الله باشا : « وهل تحفظون معاليكم أو هل يحفظ أحد من أقاربكم ثوباً من الاثواب الوطنية التي كان الفقيد العظيم يلبسها قبل ارتدائه الملابس الافرنجية ؟ » فقال انه لم يبق من ملابس سعد العربية سوى جبة حمراء وهي محفوظة اليوم في بيت الامة مع سائر مخلفات دولته

الرئيس الجليل في الكتاب

فقلت لمعالي محدثي إنه من الثابت أن سعد باشا حفظ القرآن في الكتّاب الذي كان موجوداً في أبيانه فهل يزال هذا الكتاب قائماً أو هل يزال صاحبه عائشاً واذا كان قد انتقل الى جوار ربه فهل هناك بين سكان أبيانه الحاليين من كان يتردد على ذلك الكتاب مع سعد باشا في شبابه

فقال فتح الله باشا « ان المنزل الذي كان يقوم فيه ذلك الكتاب قد انهارت أركانه وليس بين سكان أبيانه الاحياء من عاصر سعد في ذلك العهد ولكنني أعرف نجل الفقي احمد زيدان الذي

أنشأ الكتاب المذكور واسمه احمد زيدان كأبيه وقد دخل الكتاب قبل خروج سعد باشا منه وهو الشخص الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة ويذكر شيئاً عن أيام الفقيد العظيم في الكتاب فاذا كنتم ترغبون في الاجتماع به ففي استطاعتي أن أدعوه الى موافاتكم هنا غداً صباحاً ». فشكرت معاليه على عنايته وأعربت له عن رغبتي في مشاهدة احمد زيدان المذكور في أقرب وقت ممكن.

وسألت فتح الله باشا هل انتقل سعد باشا يومئذ من ابيانه الى القاهرة رأساً. أم قصد قبل ذلك الى جهة أخرى لانني فهمت من سياق حديثه أنه رحمه الله لم يتوجه الى العاصمة مباشرة فقال معاليه « ان هذه نقطة لم يلتفت اليها أحد من الذين كتبوا عن سعد باشا قبل الآن فان الفقيد العظيم لم يذهب الى القاهرة رأساً كما هو المفهوم بل ذهب أولا الى دسوق ليتلقن أصول تجويد القرآن الكريم على المقرىء الشهير الشيخ عبد الله عبد العظيم مقرىء معهد سيدي ابراهيم الدسوقي الذائع الصيت فأقام فيها فترة قصيرة من الزمان ثم استأنف سفره الى العاصمة »

حديث العم احمد زيدان

وفي صباح اليوم التالي بعد ما استيقظت من النوم وتناولت طعام الفطور جاءني أحد الخدم وأبلغني ان فتح الله باشا ينتظرني في حديقة الدار فأسرعت اليه فيها فألفيته جالساً مع شيخ في العقد السابع من عمره لابساً الملابس العربية، ولما دنوت منه

لأحييه قال لي معاليه وهو يشير اليه : «هذا هوالعم احمدزيدان الذي تبحث عنه فسله ما تشاء» فصافحت زميل سعد القديم وجلست على مقربة منه أطرح عليه السؤال تلو السؤال عن حداثة فقيد مصر العظيم

فأخبرني أنه في نحو الثانية والستين من عمره وان سعداً كان يتقدمه في السن ببضع سنوات وان والده هوالذي أنشأ الكتاب الذي تعلم فيه سعد القرآن الكريم وان عدد التلاميذ الذين كانوا يترددون على الكتاب كان يناهز التسعين وانه عند ما يغلق عينيه ويعرض ذكريات تلك الايام في مخيلته يشاهد الفتى سعد زغلول حاملا لوح الخشب بيده أو ماضياً في تسميع القرآن الكريم لاستاذه ومما يذكره عنه أيضاً ،كأنه يراه اليوم ماثلا أمامه ، أنه كان يميز عن اخوانه بطول قامته ونحولة جسمه

مقدرة سعد على حفظ القرآن

ويقول العم احمد زيدان بعد ما يشهد الله على صدق ذمته وصحة أقواله ان سعداً امتاز منذ عهده الاول في الكتاب بذكائه ونجابته وقوة ذاكرته وان «لوحته» لم تكن تمر على «الاستاذ» إلا مرة واحدة ليصححها في حين ان لوحات الآخرين كانت تمر عليه مرات وأنه أجاد حفظ القرآن الكريم حتى بزَّ جميع أقرانه بمراحل . وبلغ من جبروته على نفسه أنه كان ينشد ثلاثة أرباع المصحف كل يوم فكان ينشد ربعاً قبل الظهر وربعاً بعد الظهر وينشد الربع الثالث في المساء وكان الاستاذ يلح عليه

بالاكتفاء بربعين في اليوم فيأبى ويصر ويظل مقيما على عناده الى ان يجيبه الاستاذ الى طلبه ويجلس ازاءه ليصغي الى انشاده واستمر سعد على هذا المنوال سنة كاملة وهي آخر سنة كانت له في ذلك الكتاب

فسألت العم احمد زيدان عن السن التي كان فيها سعد باشا لما انتقل الى القاهرة فقال أنه يجهل هذه التفاصيل ولكن سعداً كان قد بلغ أشده في ذلك الحين

فقلت لزميل سعد القديم : « وهل كان زملاء سعد يحبونه فقال انهم كانوا يحترمونه أكثر مما كانوا يحبونه لأن الحسد كان يملأ قلوبهم منه فكان اذا غاب يوماً عن الكتاب هللوا وصفقوا ودخلوا على والدي وهم يصيحون : « الخيبة غاب النهار ده يا استاذ »

سعد باشا « خيبة » في اللعب

فقلت للعم احمد زيدان : ومن كانوا يعنون بلفظة « خيبة » ؟ فقال ببساطة : « سعد باشا » فقلت « كيف كان سعد باشا ذكياً ومجتهداً كما قلت قبلاً وكيف كانوا يسمونه خيبة كما تقول الآن » . فضحك العم احمد زيدان وقال : « كان ذكياً في داخل الكتاب ولكنه كان خيبة في اللعب وخصوصاً في لعب الكرة وكان من المحقق أن الفريق الذي يلعب معه يخسر دائماً ولذلك سموه خيبة على سبيل المداعبة والمزاح حتى ان والدي كان يلتبس عليه الامر أحياناً فيناديه في بعض الأيام بقوله له : « تعال يا خيبة » ثم يفطن الى خطأه فيقول حالاً : « طيب تعال معلهش »

وزاد العم احمد زيدان على ما تقدم قوله ان سعد باشا كان يرهب جانب والده (العم احمد زيدان الكبير) لأن والدته الست مريم زغلول كانت تعهد اليه أحياناً في تأديبه عند ما تغضب عليه لمسلكه في البيت وهو يذكر أنه رآه مرة مطروحاً على الارض موثوق اليدين ووالده (أي العم احمد زيدان الكبير) ينهال بالجريد على قدميه عظة له وعبرة لغيره من زملائه .

وهنا ابتسم فتح الله باشا وقال : « صحيح ! ياما خدناضرب . وكان يكفي أن يذكروا أمامنا اسم الفقي لنرتعش خوفاً وجزعاً »

سعد وفتحي وفتح الله

وبعد ما انتهيت من حديثي مع العم احمد زيدان، التفت الى فتح الله باشا وقال :

هذه أول مرة أسمع فيها حكاية اسم « خيبة » عن سعد باشا وقد كان سعد باشا ينفر حقيقة من اللعب واللهو في ذلك الزمان وكثيراً ما كان يغضب على أخيه فتحي باشا لأنه كان يجاريني في لعبي وكانوا اذا سألوه لماذا يعرض عنا في معظم الاحيان يجيب السائلين بقوله : «دول عيال مدلعين» غير انه كان يشترك معنا أحياناً في اللعب وخصوصاً عند ما كنت أذهب لزيارتهم في ابيانة فكنا نلعب في الفناء الذي يقوم عليه الآن سلاملك بيت سعد باشا هناك

فسألت فتح الله باشا من باب التفكهة عن أنواع اللعب التي كان يلعبها مع سعد باشا وفتحي باشا فقال : انتا كنا نلعب إما « الاستغماية » أو « الكرة »

سعد باشا يرث اخلاقه

وأدى بنا هذا الحديث الى الكلام عن أخلاق سعد باشا فقلت لفتح الله باشا ان الفقيد اشتهر في حياته بعناده وصلابة رأيه وقوة شكيمته فهل يعتقد أنه ورث هذه الصفات عن أحد من أهله فقال معاليه : « ان هذا مؤكد ومما لا ريب فيه أنه ورثها عن جده الشيخ عبده بركات (والد ام سعد باشا وجد فتح الله باشا من أبيه) وعن والده ابراهيم زغلول وعن خاله عبد الله بركات (والد فتح الله باشا) وسأسرد لكم حكاية واحدة عن كل منهم ثم أدع لكم أن تقارنوا بين أخلاقهم وأخلاق سعد باشا

قال فتح الله باشا : « كان الشيخ عبده بركات جد سعد باشا مشهوراً في هذه المنطقة بسلطته ونفوذه فغضب عليه المدير التركي في يوم من الايام وأراد التشهير به فجمع أعيان الدائرة بجوار ساقية من السواقي ولما اكتمل عقدهم قال لهم : « لقد أرسلت أطلب من الشيخ عبده بركات أن يحضر الى هنا واذا كنتم تعتقدون أن هذا الرجل عظيم وقوي البطش فأنتم مخطئون وسترون الآن كيف سأعامله وكيف انني لن أفرج عنه قبل أن يلمس وجهه الارض » ثم أتى برجل مغضوب عليه وأمر بربطه بقدمي أحد الثورين الكبيرين اللذين يديران الساقية تعذيباً له على مرأى من الحاضرين وما هي الا فترة قصيرة حتى أقبل الشيخ عبده بركات على جواده ينهب الارض نهباً وما كاد يترجل عن صهوة حصانه حتى لمح ذلك المنكود الحظ المربوط بقدمي الثور فأسرع اليه وفك

رباطه وأطلق سراحه فدهش الحاضرون وتوقعوا أن يأمر المدير بقطع رأسه ولكن لم يكن من هذا الا أن نهض واقفاً ورحب بالشيخ عبده مكرماً وفادته ثم التفت الى الحاضرين وقال لهم: «أيها الجبناء ان الشيخ عبده بركات الذي كنتم تنتظرون تنكيلي به لأشرف منكم جميعاً فقد كنتم ترون هذا الرجل يتعذب وهو مربوط بقدمي الثور فلم يحرك أحدكم ساكناً لانقاذه أو لالتماس العفو عنه فاهنأ يا شيخ عبده بشهامتك» وانطلق عائداً الى ديوانه

الشيخ ابراهيم زغلول

ثم انتقل فتح الله باشا الى الكلام عن الشيخ ابراهيم زغلول والد سعد باشا فقال: «حدث مرة أن عمدة في مديرية الغربية تعدى على موظف برتبة مأمور مركز وكان المأمور يسمى يومئذ ناظر قسم فصدر الحكم على العمدة بالاعدام شنقاً وبتعليقه ثلاثة أيام في ساحة المديرية عبرة لمن يعتبر وكانت عاصمة المديرية اذ ذاك في المحلة الكبرى. واتفق بعد أيام ان ناظر القسم مر على زراعة الشيخ ابراهيم زغلول فأغلظ له في القول فاجتذبه الشيخ ابراهيم من فوق صهوة جواده وأثخنه ضرباً موجعاً ثم تركه يذهب في حاله. غير أن الحادث نمي سريعاً الى صهره عبد الله بركات فامتطى صهوة جواده وقصد الى ابيانه وقابل الشيخ ابراهيم زغلول ولامه على تصرفه وذكره بحادثة العمدة المشنوق فلم يحفل بهذا اللوم وقال انه كان يدافع عن كرامته فأسرع عبد الله بركات بجواده حتى أدرك الناظر المضروب قبل ان يصل الى الديوان فاسترضاه وانتهى الحادث

عبد الله بركات وولكوكس

أما الحكاية الثالثة فكانت عن عبد الله بركات والد فتح الله باشا وخال سعد باشا وخلاصتها انه في سنة ١٨٩٠ كان المستر ولكوكس المشهور مفتشاً للري وكان ذلك في أوائل عهده في خدمة الحكومة المصرية وقد تغير ماء النيل في جهة منية المرشد بسبب السد الذي كان يبنى في فرع رشيد فصدر الأمر الى أصحاب الوابورات الزراعية بألا يديروها بماء ترعة « البدالة » كما كانوا يفعلون قبلا بل من ماء النهر رأساً فأبى عبد الله بركات ان يذعن لهذا الأمر وأوصى رجاله بأن يديروا وابوره من ترعة البدالة فمر بزراعته المستر ولكوكس فأمر بتوقيف الوابور وبعد قليل مر بها عبد الله بركات فأمر باعادة تسيير الوابور بماء الترعة ثم لم يلبث المستر ولكوكس ان مر بها مرة ثانية فأمر بتوقيف الوابور فعاد عبد الله بركات وأمر بتسييره فعاد المستر ولكوكس وأمر بتوقيف الوابور للمرة الثالثة فعيل صبر عبد الله بركات فجمع رجاله وقال لهم : « انني ذاهب لأقتل المستر ولكوكس فانه خير لي أن اقتل بسببه على أن أرى أرضي تموت أمامي » ومضى الى مكتب المستر ولكوكس مسرعاً فلما دخل عليه قال هذا: « ماذا فعلت يا عبد الله افندي ؟ فانني كلما أمرت بتوقيف وابورك تأمر انت رجالك بتسييره ومخالفة أمري » فقال له عبد الله بركات : « وقد عدت الآن فأمرتهم باعادة تسييره وانه لخير لي ان أموت هنا من ان أرى ارضي تموت أمامي » فابتسم المستر ولكوكس

وقال : « ان رأسك يا عبـد الله افندي كهذه (وأمسك مكتبه الخشبي بيده) فأنت رجل عنيد جداً فارجع الى وابورك وخذ له ماء من الترعة كما تريد »

حزم سعد باشا وشجاعته

وما أتم فتح الله باشا كلامه حتى سألته عن أحزم موقف يعتقد أن سعد باشا وقفه في حياته فقال : « مما لا ريب فيه ان حزم سعد باشا تجلى بأجلى مظهره في الخطبة السياسية الوطنية الجامعة الرنانة التي ارتجلها قبل الغاء الحماية في جمعية الاقتصاد والتشريع السياسي على مسمع من المستشار القضائي الانجليزي وأعلن فيها بطلان الحماية وحق مصر في التمتع باستقلالها »

فسألته : « وما هو أشجع موقف وقفه سعد باشا في نظركم ؟ »

فأجاب معاليه : « انه بلا شك الموقف الذي وقفه عند مغادرته لميناء عدن الى جزائر سيشل فانكم تعلمون ان سعـد باشا نقل يومئذ وحده الى البارجة التي أقلته الى سيشل إذ لم يسمح لأحد منا في بادىء الأمر بمرافقته اليها وكان كلٌّ من الزملاء يتسابق الى أن يكون في ركاب سعد مع أن السائد على افكارنا كان انه ذاهب الى الأبد وأن من يبقى في عدن قد يعود الى الوطن فلما أزف موعد الرحيل رافقناه الى الميناء ونحن نبكي و نولول كالاطفال أما هو فكان رابط الجأش ساكن الجنان ثابت الخطى جهوري الصوت لم يذرف دمعة واحدة حتى آخر لحظة مع انه كان يشعر في تلك الساعة انه يودعنا الوداع الأخير وانه لن يعـود الى مصر بعد ذلك أبداً »

سعد يبتسم

دار سعد في ابيانه

وهنا كانت الساعة الثـانية عشرة مساء قد أزفت فختم فتح الله باشا حديثه بان أبلغني انه أمر باعداد مركبته لتكون تحت تصرفي في صباح الغد لتقلني الى ابيانه لزيارة دار سعد باشا فبهافكررت له الشكر على عنايته وفي صبيحة اليوم التالي قبل أن أتوجه الى ابيانه حدثني معاليه عن الدار التي ولد فيها سعد باشا فقال ان الدار الاصلية التي رأى فيها الفقيد العظيم نور الحياة لم يعد يبقى لها أثر وكانت داراً فسيحةوسعت في بعض الاحيان رب البيت وحرمه وأولاده الثمانية وسبعة عشر تابعاً علاوة على الضيوف وكانت تضم بين جدرانها جناحاً خاصاً لنزولهم وأقامتهم

وفي نحو سنة ١٩٠٠ هدم المغفور له سعد باشا البيت القديم وأعاد بناءه على الطراز الحديث وهـو البيت الذي يشغله « الحرملك » اليوم وبنى رحمه الله السلاملك بجواره في الفناء الذي كان يلعب فيه مع فتحي باشا وفتح الله باشا وقد وقف دولته هذا البيت على أولاد اخوته ويقطن فيه الآن أنجال المرحوم عبد الله بك زغلول نجل المرحوم الشناوي افندي زغلول أخي سعد باشا

جولة في دار الفقيد العظيم

وبعد عشر دقائق كنت واقفاً أمام دار سعد باشا في ابيانه اسرح الطرف في البقعة التي ولد فيها زعيم مصر الاكبر فالتفت

الى محمد بك زغلول نجل المرحوم عبد الله بك زغلول وقلت له : « هل كان يظن سكان ابيانه ان الفتى سعد الذي رأى النور في هذه البقعة الوضيعة سيرفع يوماً علم الاستقلال في بلاده وأن بيته سيصبح على مر الاعوام كعبة يؤمها المصريون وحرماً يقدسه الوطنيون ! » . وهنا حانت مني التفاتة الى الفناء المحيط بالدار فألفيته مملوءاً باكوام التراب وقد تصاعدت الروائح الكريهة من بعض منها فتوغلت في السير وكنت كلما تقدمت خطوة الى الامام أشاهد مظهراً آخر من مظاهر الخراب الذي بدأ يسود ذلك المكان . اما البقعة التي كان يقوم عليها الجناح الذي ولد فيه سعد باشا في الدار القديمة وتقع هذه البقعة الآن خلف « الحرملك » في مكان السور الذي يفصل الدار عن الطريق العام — اما هذه البقعة فلم تعد في الواقع سوى أكوام مكدسة من الحجر والتراب وقد تفشت منها بعض الروائح ايضاً فاستولى عليّ حزن شديد سيتسرب مثله الى قلب كل من يقرأ هذه السطور التي تعجز عن وصف الحالة الراهنة وليس من رأى كمن سمع ! . . . ولئن كانت الظروف لم تسمح لي بدخول الحرملك والسلاملك إلا انه في مظهرها الخارجي وحده ما يكفي لمضاعفة ذلك الحزن فتى يحل اليوم الذي يهتم فيه المصريون بمسقط رأس زعيمهم يا ترى ومتى نراهم يشمرون عن ساعد العمل والجد ليصونوا ذلك البيت التاريخي من كل عبث وخراب ؟ . . .

من هو العم علي طلحه

وكان فتح الله باشا قد أوصاني قبل ذهابي الى ابيانه بأن

أبحث فيها عقب وصولي اليها عن شخص يدعى علي طلحه عرف سعد باشا في حداثته ثم رافقه الى القاهرة كخادم بسيط لماكان الفقيد العظيم يشتغل فيها بالمحاماة فلما اجتمعت بمحمد بك زغلول في ابيانه سألته عن علي طلحه المذكور فأشار الى رجل مسن صغير القامة نحيل الجسم كان يسير على مقربة منا وقال لي: « هذا هو علي طلحه » فناديته وسألته هل يذكر سعد باشا فقال: « اذا كنت انا لا أذكره فمن ذا الذي يذكره اذن ؟! » ومما هو جدير بالذكر هنا ان والدة علي طلحه هي التي أرضعت سعد باشا وهو طفل وكانت ترضع معه طفلتها التي ولدت في الوقت عينه وكان اسم الطفلة « فرحانة » فكانت ام علي طلحه تحمل « سعد » على ذراع و « فرحانة » على ذراع آخر ويالهما من اسمين بهيجين ، وكأن ريباً خامر علي طلحه في الباعث لي على سؤاله عن ذكرياته عن سعد باشا فسألني لماذا اريد سماعها فأخبرته بالغاية منها فسري عنه وأخذ يجاوبني على أسئلتي بصراحة

سعد وأخوه الشناوي افندي

وقبل ان أنقل الى القراء المعلومات التي أدلى بها اليَّ العم علي طلحه تحسن الاشارة الى أن الشيخ ابراهيم زغلول والد سعد باشا تزوج مرتين فرزق من الزوجة الاولى خمسة بنين وهم : شلبي والشناوي واحمد ومحمد وعبد الرحمن . ورزق من الزوجة الثانية سعد وفتحي وفرج الله وقد توفى هذا الاخير وهو حدث ويقول العم علي طلحه ان الشيخ ابراهيم زغلول انتقل الى

جوار ربه ونجله سعد لم يناهز بعد الثالثة من عمره فاهتم به شقيقه الشناوي افندي الذي كان ثاني انجال الشيخ ابراهيم زغلول وأدخله الكتاب ثم ارسله الى القاهرة ليدخل الازهر الشريف

فقلت للعم علي طلحه : « اتريد ان تقول بذلك انه لولا الشناوي افندي لما كان سعد باشا قد دخل الكتاب وانتظم في سلك الازهر ؟ »

فقال : « انني لا أشك في ذلك » فقلت : « هل لك أن تخبرني لماذا كان الشناوي افندي هو الذي يهتم بشؤون أفراد اسرته أكثر من غيره ؟ » فقال : « لان سائر اخوته كانوا يشتغلون بالزراعة أما هو فظل في البلد وصار عمدة» فقلت: «وهل تستطيع أن تعلل سبب اهتمام الشناوي افندي بسعد باشا وفتحي باشا أكثر من اهتمامه بسائر اخوته فسهر على تعليمهما بعناية؟ » فقال : « ان لذلك ثلاثة أسباب أولها ان الشناوي افندي تزوج من شقيقة زوجة أبيه الثانية أي من شقيقة والدة سعد وفتحي فكان من الطبيعي أن يعطف عليهما عطفاً خاصاً بحكم هذه الصلة. أما السبب الثاني فينحصر فيما شاهده الشناوي أفندي في سعد وفتحي من الذكاء المفرط منذ نعومة أظفارهما ويلي ذلك السبب الثالث وهو أن سعد وفتحي كانا أصغر اخوتهما سناً فكان هناك مجال لتعليمهما وتثقيف عقليهما » . فقلت: « ان هذه الاسباب الثلاثة وحدها لا تكفي ولا بد ان الشناوي أفندي كان طيب القلب ».

فقال العم علي طلحه على الفور : « أما عن طيب قلبه فحدّث ولا حرج . ومن ذلك انه لما ذهبت الى العاصمة في خدمة سعد

باشا بلغه يوماً انني مريض ومتعب فسافر الى القاهرة وعادني ولما رآني في حاجة الى تبديل الهواء عاد بي الى هنا وكان يسهر على معالجتي كأني شقيقه »

سعد باشا وكيف احب العلم

فسألت العم علي طلحه : « وهل كان سعد باشا ميالا الى الدرس والحفظ ؟ » فأجاب : « انه أبى ان يذهب الى الكتاب في بادىء الامر فلم يكن من الشناوي افندي إلا ان « اتكًّ » عليه فاضطر الى الاذعان لرغبته وكان كلما تكاسل في فروضه « يتك » عليه ويضربه فلم ينقض على دخوله الكتاب وقت قصير حتى بدأ يتلذذ بتوسيع مداركه ومعارفه فأكب على الدرس والحفظ بعناية واجتهاد ولم يلبث أن أصبح « ألفة » الكتاب فازداد شغفه بالعلم والتحصيل فلما كاشفه الشناوي افندي برغبته في إرساله الى العاصمة ليدخل الازهر رقص للفكرة من شدة فرحه رغم الحزن الذي استولى على الست مريم امه بسبب فراقه ». فقلت للعم علي طلحه: « وما هي أوقع ذكرى تركها سعد باشا في نفسك ؟ » فتردد قليلاً ثم قال: « كان شديداً ... لا يعذر من يتوانى في تأدية الواجبات الملقاة على عاتقه » فقلت : « وهل كان الباشا شديد التدقيق في مأكله؟ » فقال « انه لم يعرف هذا التدقيق الا بعد مرضه اما قبلا فان احب أنواع المآكل اليه كان السمك فلما مرض صار يكثر من أكل الفراخ مع الخضار » فقلت : « وهل كان دولته يفرط في التدخين ؟ » فقال : « كثيراً حتى انك كنت تشم رائحة الدخان

في ملابسه بعد عودته الى بيته ولكن الغريب انه أبطل التدخين دفعة واحدة لما أثبت له الاطباء أنه مضر بقلبه حتى صار يعتقد انه لا يستطيع شم رائحته وفضلاً كان يحظر على زواره أن يدخنوا في مكتبه »

وختمت حديثي مع العم على طلحه بأن قلت له مبتسماً : « وهل أنت سعيد يا عم علي لأ نك عرفت سعد باشا هذه المعرفة الوثيقة ؟ » فقال : « وهل كان لنا بركة غيره ؟! » فقلت: « ومن تقصد بلفظة لنا هذه ؟ » . فقال : « البلد كلها . . . يعني مش عارف ؟! » وهنا انهمرت الدموع من عينيه فغدا لا يقوى على الكلام فوضع يديه على وجهه وابتعد عنا وهو ينتحب

***

ولما انتهت مهمتي في ابيانه قفلت راجعاً الى منية المرشد لاستأذن من فتح الله باشا في العودة الى العاصمة شاكراً لمعاليه ما لقيته من حفاوته وإكرامه وحسن رعايته

سعد فى بيته

[يشتمل هذا الفصل على وصف دقيق لبيت الامة ومحتوياته وعلى فذلكة عن حياة الفقيد العظيم المغفور له سعد زغلول باشا في هذا البيت وفي بيته في مسجد وصيف وعلى حديث افضى به سعادة حمد الباسل باشا وكيل الوفد المصري الى المؤلف عن حياة سعد في مالطه وعلى مقتطفات من المذكرات التاريخية التي دونها محمود افندي عبد الله تابع سعد باشا في عدن وسيشل وجبل طارق عن معيشة الرئيس الجليل في تلك البلاد وعلى حديث ادلى به معالي الاستاذ مكرم عبيد الى المؤلف عن سعد بين عدن وسيشل]

جولة في بيت الامة

كان المغفور له الفقيد العظيم سعد زغلول باشا يسكن قبل أن يتزوج في المنزل القائم على ناصيتي شارع عابدين وشارع الشيخ ريحان أمام سراي عابدين وهو المنزل الذي تشغله الآن عيادة الدكتور واصف. ثم انتقل رحمه الله الى منزل كبير في حي الظاهر في شارع زغلول الذي اسمي باسمه ولكن هواء ذلك الحي لم يلائم صحة ام المصريين ففكروا في بناء منزل جديد واختاروا حي« الانشاء » مكاناً يشيدونه فيه لما كان هذا الحي متصفاً به يومئذ من الهدوء والسكينة ، وريثما يتم بناء المنزل الجديد سكن الفقيد العظيم وصاحبة العصمة حرمه في منزل المغفور له مصطفى فهمي باشا والد ام المصريين وهو المنزل الذي اشتراه «الفرير» فيما بعد وحولوه الى المدرسة الكبيرة التي لهم الآن في حي باب اللوق

وكانت تحيط ببيت الامة قبل ابتداء الحركة الوطنية حديقة صغيرة تبتدىء عند الباب الخارجي ثم تتفرع الى ممرين :أحدهما يؤدي الى«السلاملك» والآخر نحو الجزء الادنى من الحديقة وبينهما ممر عريض يؤدي الى السلالم الرخام الموصلة الى الباب الداخلي الكبير

وعند ما تصل الى الباب الداخلي الكبير المشار اليه آنفاً تدق الجرس فيفتح لك خادم سوداني فتجد نفسك أمام «بارفان» عريض والى يمينك ويسارك دولابان (فستيير) لتعليق الملابس فاذا خطوت قليلاً الفيت نفسك في قاعة كبيرة طولها عشرون ياردة وعرضها خمس ياردات وفي هذه القاعة كان أعضاء الوفد المصري وأنصاره يجتمعون للبحث في الشؤون السياسية في بدء الحركة الوطنية

وقد زينت جدران هذه القاعة بصور وتحف كثيرة فالى الجهة اليمنى ترى مرآة كبيرة تعلوها « يافطة » مكتوب عليها «ام المصريين صفيه هانم زغلول» والى يمين المرآة وثيقة اخلاص من طلبة مدرسة عباس باشا الاول ممضاة من جميع الطلبة والى يسار المرآة أبيات من الشعر موضوعة في داخل اطار جميل مهدى من سيدات طنطا الى ام المصريين فباب يؤدي الى دورة المياه فصورة ملونة تمثل جماعة من الفقراء اشترتها صفيه هانم من من أحد معارض الفنون الجميلة فتمثال نصفي لسعد باشا من صنع المثال الروسي « بورفتش » فالسلم المؤدي الى الدور العلوي

هذا من الجهة اليمنى للقاعة أما من الجهة اليسرى فترى مقعدين من القطيفة تعلوها «يافطة» مكتوب عليها « صفيه زغلول زعيمة الوطنية ونصيرة الحرية » تحيط بها صورتان طبيعيتان ملونتان وتحتها تمثال مهدى من كلية الاقباط الى بيت الامة فصورة مصرية ملونة فتهنئة شعرية فصورة لسعد باشا وهو خارج من محل (هنزلمان) فصورة أخرى تمثله وهو جالس الى مكتبه يطالع جريدة «المنبر»

فصورة لابطال «سيشل» وفي هذه القاعة ساعة تدق «علي كيفها» كما كان الرئيس الجليل يقول عنها

وتقوم الى الجهة اليمنى من القاعة التي أتينا على وصفها آنفاً حجرة صغيرة للجلوس أثثت بطقم مصنوع من خشب الموجني المكسو بالقماش الابيض ذي الشجر الاحمر وقد وضع في صدر هذه الحجرة كرسي كبير من الكراسي المعروفة « بالشيزلونج » وهو الكرسي الذي تتمدد عليه ام المصريين ولهغطاء أسود وقد علقت على الجدران صورة ملونة كبيرة لسعد باشا وصور متعددة لوالد ام المصريين ووالدتها ولبعض الاقارب

ثم تنتقل الى الحجرة التي بجوارها وتسمى «الصالون الكبير» وفيها صورة كبيرة للفقيد المظيم تقابلها أحسن صورة لأم المصريين وتليها حجرة صغيرة كانت مكتباً لسعد باشا وفيها كانت تجري مقابلات الزعماء أيام الائتلاف والانتخابات وهي تحتوي على مكتب جميل صفت عليه أدوات أنيقة للكتابة أهدتها صاحبة السمو ام المحسنين الى المغفور له الفقيد المظيم وتحلي جدران الغرفة صور زيتية من صنع ام المصريين واخواتها وصديقاتها وقد كانت هذه الحجرة في الماضي خاصة بالمرحوم سعيد بك زغلول ابن اخت سعد باشا

والى اليمين أيضاً قاعة الطعام وقد كان الرئيس الجليل يجلس دائماً في صدر المائدة وهو مكان لم يتحول عنه سعد منذ اليوم الذي تم فيه بناء بيت الامة مهما علا مقام المدعوين . ومما تحسن

الاشارة اليه هنا ان جميع خدم البيت يلبسون أحذية سوداء مع قفاطينهم البيضاء

ويلي ذلك حجرة «الاوفيس» ثم صالة مستطيلة تنتهي بسلم يتفرع الى فرعين : احدهما يؤدي الى «البدرون» والآخر الى الدور العلوي . ويوجد في نهاية هذه الحجرة « اسانسير » يوصل الى الدور العلوي وقد كتب عليه « سعد زغلول »

الدور العلوي

تصعد اليه من القاعة الكبرى بالسلم الكبير المصنوع من الرخام وقد غطي بالسجاد وعدد درجاته ٣٣ درجة فيقابلك ممر الى يمينه حجرة « تواليت » ام المصريين وهي تحولها في الشتاء الى حجرة لجلوسها وفي هذه الحجرة توجد الملابس الصيفية للفقيد العظيم سعد باشا مع بعض ملابس ام المصريين وفيها أيضاً طاولة « تواليت » كاملة و« شيزلونج » ثم تليها حجرة نوم فيها سريران أحدهما لام المصريين والآخر لسعد باشا وأجزاخانة صغيرة وفي هذه الغرفة توفى سعد باشا وما زالت ام المصريين تنام فيها الى اليوم وتليها حجرة تواليت سعد باشا وقد تحولت الى حجرة نوم لمدموازيل فريدا وفيها دولاب يحتوي على أحذية سعد باشا وآخر يحتوي على بذله الرسمية وعلى قفطانه الاحمر وهو تذكاره الوحيد من عهد الجبة والقفطان ...

وجميع الابواب توصل الى قاعة كبيرة مفروشة بالأبسطة الحمراء وفي وسطها مكتب لسعد باشا عليه دواتان حمراواتان

اقتناها قبل الحرب العظمى وكان من عادة الفقيد العظيم أن يضع دائماً على مكتبه قلماً أحمراً كبيراً وقد زينت جدران هذه القاعة بصور كثيرين من أفراد الاسرة المالكة المصرية

والى يمين الممر صالة صغيرة مملوءة بالصور وفيها مدخل « الاسانسير » المصعد

والى اليمين أيضاً اقتراح لسعد باشا بالاسماء التي يجب أن يسمى بها النيل بعد الاستقلال ثم طائفة من الصور منها صورة سعد باشا بين أهالي دائرته (السيدة زينب) وكذلك تذكار من مدرسة عابدين الابتدائية وتمزية مصلحة المجاري في سعد باشا ثم دولابان كبيران هما أجزاخانة أم المصريين

وتنتهي القاعة المتقدمة بباب يوصل الى حجرة جلوس سعد باشا وام المصريين وكانت هذه الحجرة مخصصة قبلا للضيوف وكانت حرم أمين بك يوسف تقيم فيها عند حضورها الى العاصمة قبل انتقالها اليها وهي تحتوى على كثير من الصور . وفي هذه الحجرة راجع سعد باشا قضية الاستاذين ماهر والنقراشي وفيها بحث سعد باشا أيضاً مع عدلي باشا وثروت باشا في أزمة الجيش وأزمة استقالة الوزارة العدلية الثانية سنة ١٩٢٧ وفيها كرسي صغير كان الفقيد العظيم يحبه حباً جماً ويجلس عليه كثيراً

وتقوم على السطوح ثلاث غرف : الاولى لام المدموازيل فريدا والثانية « للكريرة » والثالثة للغسيل

أما البدرون فينقسم الى ثلاثة اقسام : قسم المطبخ والكرار قسم البدرون الخارجي — قسم بدرون الحريم — وزوورام المصريين

. الاول والاخير مرة كل أسبوع وتشرف عليهما يومياً المدموازيل فريدا ووالدتها . أما البدرون الخارجي فيشتمل على مخزن وحجرة قهوة ومكتب كان أعضاء لجان الطلبة التنفيذية يجتمعون فيه

وأما السلاملك فمعروف لجميع زائري بيت الامة وهو يتألف من الحجرة الخضراء أو حجرة الانتظار وحجرة السكرتارية ويشغلها الآن مأمون افندي الريدي ثم حجرة المكتبة وهي مرتبة ترتيباً جيدا إلا في بعض اجزائها

وأما مكتب الرئيس الكبير فهي حجرة تاريخية جليلة ملآنة بالصور والتحف وطافحة بالذكريات التاريخية والوطنية وبين صورها الكثيرة صورتان كبيرتان احداها للمغفور له احمد فتحي زغلول باشا والاخرى للمغفور له مصطفى فهمي باشا وهناك صورة للشيخ محمد عبده وصورة لبسمارك وصورة لسمو الخديوي السابق وهذا المكتب معروف بمحتوياته ومؤثثاته للسواد الاعظم من زائري بيت الامة فلا داعي الى الافاضة في وصفه هنا . وحسبنا الاكتفاء بالقول ان الفقيد العظيم كان يحب هذه الحجرة حباً شديداً وكثيراً ما أعرب عن شوقه اليها في خلال مرضه الاخير رحمه الله

سعد الزعيم

معيشة سعد في بيته

كان الفقيد العظيم عندما يستيقظ في الصباح يبدأ بشرب القهوة ثم يفطر وبعد ما يفرغ من الاكل يشرع في ارتداء ملابسه ، وكان من عادة دولته ان يحلق ذقنه بنفسه وفيما هو يحلقها يملي على سكرتيره مقالة أو يصغي الى مايتلوه عليه من الرسائل أو يحادث من يتفق وجوده معه في الغرفة ، وفي نحو الساعة العاشرة قبل الظهر ينزل دولته الى مكتبه ويمكث فيه عشر دقائق على الاكثر ثم يطلب سيارته ويخرج للنزهة مستصحباً معه أحد خلصائه ، وكان رحمه الله يتنزه عادة في الجزيرة أو الجيزة أو حدائق القبة ، واذا أحس عندوصوله اليها براحة في جسمه نزل من سيارته ومشى قليلاً ثم عاد الى مركبته واستأنف نزهته ، ومتى آب الى بيت الامة جلس في مكتبه ومكث فيه يستقبل الزائرين حتى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ثم يدخل قاعة الطعام مع من يدعوه الى الاكل معه من أخصائه وينام بعد الغداء نحو ساعة ونصف ساعة ، أما في المساء فكان لا يدخل فراشه قبل الساعة الحادية عشرة ولا ينام أكثر من خمس ساعات

وكان الراحل الكريم لا ينزل الى مكتبه بعد الظهر في الاحوال العادية بل يمضي وقته بمطالعة جرائد المساء واستقبال

زائريه الخصوصيين في مكتبه الداخلي في الطابق الاول أو في الطابق العلوي ، وفي هذا الوقت ، أي بعد الظهر ، كانت المباحثات السياسية الخصوصية تجري بينه وبين اعضاء الوفد أو بين الهيئات السياسية الاخرى التي كان الوفد يعمل معها ، وكان دولته يقضي جميع أوقات الفراغ بالمطالعة وكان يؤثر ان يقرأ لنفسه على ان يقرأ غيره له ، ثم يتعشى ، وكان رحمه الله لا يأكل على المائدة إلا الأكل الخاص الذي يشير عليه به أطباؤه ، واما ضيوفه فكانت تقدم اليهم الاصناف العادية وكان يتعهدهم بالكلام طول مدة الاكل غير مميز بين كبيرهم وصغيرهم وكان لا يتكلم وهو يأكل إلا في الموضوعات السياسية وقد يستطرد أحياناً الى ذكر حوادث قديمة لها علاقة برجال السياسة الحاليين وكان من عادته أن يصغي الى حديث كل واحد من الحاضرين بقطع النظر عن سنه ومقامه ، وكانت مدة الاكل لا تستغرق أقل من ساعة غير أنه كثيراً ما كان دولته يستبقي مدعويه نصف ساعة أخرى يشربون في أثنائها القهوة ويتممون الحديث

وكان سعد باشا لا يطالع في معظم الأحيان الا كتباً ألمانية وانجليزية وهي دائماً كتب تاريخية أو فلسفية أو قانونية وقد تعلم دولته مبادىء اللغة الانجليزية في إبان نفيه أما الالمانية فتعلمها على يد المدموازيل فريدا (١) بعد عودته من المنفى ، وقد ظل حتى أواخر أيامه يقرأ عليها ما يطالعه من

(١) وصيفة سعد باشا الالمانية وهي على جانب كبير من التثقيف العلمي والخلقي

الكتب في هاتين اللغتين فتصحح له لفظه وتساعده على ترجمة ما يتعذر عليه فهمه وقد تروق لدولته أحياناً قطعة مما يقرؤه فيترجمها ويحفظها بين أوراقه أو يرسلها الى احدى الجرائد لنشرها بامضاء مستعار ، وكان اذا تصفح جريدة ما وأعجبته مقالة فيها يقول بالفرنسية : « مي تريه بيان » (أي حسن جداً) أو يقول «برافو». وكان حديث دولته مع زائريه لا يخلو من كلمات فرنسية ثم يعقبها حالاً بترجمتها العربية . أما اذا لم يرتح الى المقالة التي يقرؤها فانه كان يفند فحواها فوراً كلما فرغ من قراءة فقرة من فقراتها ثم يستمر في الاطلاع على بقيتها مستأنفاً نقده وتفنيده كلما رأى محلاً للنقد والتفنيد في جزء من أجزائها

وكان من عادته رحمه الله أن ينتقل في فصل الصيف الى مسجد وصيف وحيثما كان الزائر يسير في داره هناك كان يجد دلائل الحب العائلي ماثلة أمامه ففي هذه الحجرة مثلاً صورة كبيرة للمغفور له مصطفى فهمي باشا وعلى الخوان الذي بجانبها صورة اخرى له وللمغفور لها حرمه وفي تلك الحجرة صورة بل مجموعة صور فوتوغرافية لام المصريين صفيه هانم زغلول تمثلها في كل دور من أدوار سني حياتها فلا يسع المجتال في تلك الدار إلا أن يشعر بأن ربها يحمل بين جنبيه قلباً طبع على الحنو والشفقة والحب العائلي كما طبع على حب وطنه وشعبه . وكانت ام المصريين تبذل جهدها لارضائه وراحته منذ اليوم الاول لزواجهما . ومما روته في هذا الصدد بعد وفاة فقيدها العظيم بأربعة أيام لمن كان يحيط بها من المعزيات :

« كان سعد يكره تبرج النساء ، وكان يمقت كل سيدة متبرجة ، وكان اذا رأى عندي سيدتين احداهما متبرجة والاخرى غير متبرجة التفت الى الثانية وقال لها « لماذا اكثرت اليوم من البودرة والاحمر على وجهك » فتخجل السيدة الاولى وتقول له: « بل أنا يا دولة الباشا اللي مكثرة من البودرة والاحمر » ولا تعود الى التبرج عند ما تزورنا مرة اخرى »

قالت صفية هانم : « وكنت ألوم سعد على هذه الصراحة وأؤكد له أنه بكلامه هذا يؤلم المتبرجات فكان يجاوبني : « ولماذا لا تريدين ان أكون صريحاً فيما أعتقده حقاً »

قالت صفية هانم: « وكان سعد يكره « البودرة » طول حياته ومما أذكره أنني لم أضع على وجهي ذرة واحدة من « البودرة » منذ يوم زفافنا »

أما شجاعة ام المصريين فتجلت بأجلى مظاهرها في أثناء الحركة الوطنية فانه لما اعتقل ولاة الامور البريطانيون دولة الرئيس الجليل وأرسلوه الى السويس لابعاده الى عدن ومنها الى جزائر سيشل طلبت حرمه المصون من السلطة البريطانية أن تسمح لها بمرافقة زوجها في نفيه لتسهر على راحته والعناية به رأفة بشيخوخته وشفقة على صحته فأبت السلطة يومئذ أن تجيبها الى طلبها وأصرت على ان يرحل سعد من دونها

ولسنا في حاجة الى تذكير القراء بما أبدته صفية هانم بعد ترحيل الرئيس من الشجاعة والوطنية فكانت على اتصال دائم باعضاء الوفد المصري تشترك معهم في مداولاتهم وتحل محل قرينها

في اجتماعاتهم وتستقبل الوفود وتخطب فيها حاثة الاهلين على التمسك بمطالبهم والمضي في جهادهم مستنيرين بمبادىء «وفدهم» مستمدين روح البذل والتضحية من مسلك زعمائه ورئيسهم فكان لخطبها ومساعيها وقع عظيم في رجال الوفد وفى رجال الامة وسيداتها

والظاهر أن ولاة الامور البريطانيين عادوا فرأوا أن التأثير الذي تحدثه صفية هانم في نفوس الامة لا يقل عن التأثير الذي يحدثه سعد باشا نفسه فاستقر قرارهم على أن يأذنوا لها في اللحاق بقرينها وبينا كانت عصمتها جالسة ذات يوم في بيت الامة مع جماعة من أقربائها دنا منها أحدهم وأخبرها ان دار المندوب السامي البريطاني تريد مخاطبتها بالتلفون ، فنهضت وسارت الى حيث كانت آلة التلفون وسألت مخاطبها عما يريده منها فأجابها بأن اللورد اللنبي يبلغها أن لامانع عنده من أن تلحق بسعد باشا وان في وسعها ان تسافر متى شاءت فقالت له على الفور: «لقد استودعت زوجي يدى الله وسأبقى أنا هنا أؤدي الواجب عليّ نحو وطني الى أن يعود»

سعد في مسجد وصيف (١)

لما دخلنا على الفقيد العظيم في حجرة الاستقبال الفيناه جالساً مع الدكتور حامد محمود نائب طوخ فاستقبلنا رحمه الله هاشاً باشاً وهو يقول « أهلا وسهلا بكم » ، فلثمنا يده الكريمة وهو يحاول ان يستردها قائلا « مرسى ! مرسى ! تفضلوا اقعدوا » فجلس فريق منا على مقعد وجلس الفريق الآخر على الكراسي بعيداً عن المكان الذي كان جالسا فيه فقال دولته « لأ ماتبعدوش قرب يا فلان ، وقرب يا فلان » فنقلنا كراسينا الى جواره واخذ حفظه الله يسأل كل منا عن صحته واحواله شأن الوالد الحنون مع اولاده وبينما نحن كذلك دخل علينا بهي الدين بركات بك نجل معالي فتح الله بركات باشا فلثم يد الرئيس فقبله دولته في وجهه وسأله لماذا لم يخاطبه بالتلفون عن عزمه الى المجيء اليه وكان سعد باشا يخاطب نجل ابن شقيقته ودلائل الحب العائلي بادية على محياه وهي دلائل تبدو لك حيثما تسير في دار الرئيس

في هذه الحجرة مثلا صورة كبيرة للمغفور له مصطفى فهمي باشا وعلى الخوان الذي بجانبها صورة اخرى له والمغفور لها

---

(١) من وصف لزيارة قام بها المؤلف مع بعض اصدقائه للرئيس الجليل في مسجد وصيف في شهر اكتوبر سنة ١٩٢٧

حرمه وفي تلك الحجرة صورة بل مجموعة صور فوتوغرافية لأم المصريين صفيه هانم زغلول وهي تمثلها في كل دور من ادوار سني حياتها فلا يسع المتجول في تلك الدار المباركة الا أن يشعر بأن ربها يحمل بين جنبيه قلباً طبع على الحنو والشفقة والحب العائلي كما طبع على حب الوطن ، ذلك الحب العظيم الذي دفعه الى اقتحام المخاطر غير مرة في سبيل بلاده التي وقف صحته وعلمه وجهوده على خدمتها وخدمة أبنائها

ويشعر زائر دار سعد باشا في مسجد وصيف بأنه في مصيف اعد للراحة وترويح النفس وتنزيه الخاطر فالوان جدرانه وأثاثه وبراويز الصور التي حليت به غرفه كلها من الالوان التي يرتاح اليها النظر ، والدار مؤلفة من طبقتين على طراز « الفيلات » الاوربية التي نشاهدها في المعادي والزمالك ورمل الاسكندرية ويجلس سعد باشا في الغرفة التي يستقبل فيها ضيوفه الى جانب طاولة صغيرة وضع عليها آلة صغيرة للتلفون حتى لا يضطر الى الانتقال من مكان الى آخر عند ما يريد أن يتكلم به وقد جهز الجدار في المكان عينه أيضاً بزر كهربائي يضغط عليه الرئيس عند ما يبغي أن يدعو اليه احداً من خدمه

***

وبعد ما سأل سعد باشا كلاً من زائريه عن شؤونه واحواله دار الحديث لمناسبة ما على أخلاق كبرائنا وعظمائنا فقال احدنا ان كثيرين منهم يعتقدون انه يجب عليهم ان يعيشوا مترفعين عن الشعب منعزلين عنه ولكن الحمد لله الذي أتاح لنا الآن وزارة

شعبية يشعر أعضاؤها بانهم من الشعب ويشعر الشعب بانهم من أفراده ومن ذلك انه بلغنا ونحن في بنها في طريقنا الى مسجد وصيف انه لما مر معالي علي الشمسي باشا (وكان يومئذ وزيراً للمعارف) في اوائل الشهر ببنها قاصداً مسجد وصيف أيضاً رأى الخفراء مصطفين على طول الطريق من بنها الى مسجد وصيف فلم يرتح معاليه الى ذلك وقال انه من الحرام ان يكلف اولئك الخفراء ان يصطفوا تحت وهج الشمس ثلاث ساعات متواصلة بعد ما سهروا الليل كله وخصوصاً ان الزيارة ليست زيارة رسمية وابلغ معاليه استياءه هذا الى الذي امر ببث الخفراء على طول الطريق

فاعرب دولة الرئيس الجليل عن ارتياحه الى مسلك علي باشا الشمسي وقال انه لا يفهم حقيقة الغاية من بث الخفراء والجنود علي طول الطريق على هذا المنوال وأنه لا يقدر الاحترام ومظاهر الاكرام التي لا تتجلى الا بالبوليس والخفراء وأنه يعتقد ان الاحترام الوحيد الذي يجدر ان يسمى احتراما والاكرام الوحيد الذي ينبغي ان يسمى اكراما هما الاحترام والاكرام اللذان يبدران من القلوب عفواً نحو الذين اكتسبوا احترام الناس واكرامهم باعمالهم وافعالهم لا بمظاهر القوة والضغط على النفوس والحرية الشخصية وبعد ما أفاض دولته في وصف الدمقراطية ووجوب اختلاط الحكام بالرعية قص علينا أنه لما تقلد وزارة المعارف وذهب الى ديوانه بالوزارة لاول مرة سمع وهو ينزل من مركبته شاويشا ينادي « قرة قول سلاح » ثم

رأى جماعة من الجنود يصطفون ببندقياتهم ويؤدون له التحية العسكرية فظن انها عادة جري عليها في استقبال الوزراء الجدد فسكت ولم يتكلم غير أنه لم يكد يصل الى باب الوزارة في اليوم التالى حتى سمع الشاويش ينادى « قره قول سلاح » أيضاً وأبصر الجند يصطفون كالامس ويؤدون له التحية العسكرية فسأل عن الأمر فاجابوه بأن في وزارة المعارف خزنة يتولى اولئك الجنود حراستها وأن العادة جرت حتى ذلك الحين بأن يستقبلوا الوزير كل يوم بهيئة « قره قول شرف » ويؤدوا له التحية العسكرية فقال لهم دولته « لا ! فاما ان تنقلوا الخزنة من هنا او تأمروا الجنود بأن لا يصطفوا كل يوم على هذا المنوال » ومن ذلك اليوم لم يعد الجنود يصطفون بهيئة « قره قول سلاح » لتحية الوزير

ولما تقلد سعد باشا رئاسة الوزارة في سنة ١٩٢٤ زاره ذات يوم وفد من الاقاليم وعلى رأسه مدير المديرية التى ينتمي اليها أعضاء ذلك الوفد ولما دخلوا عليه شرع المدير في تقديمهم الى دولته فقاطعه رحمه الله قائلاً « لا تتعب نفسك يافلان فانا اعرفهم واعرف اسماءهم ولست في حاجة الى من يعرفني بهم أو يقدمهم الىّ » ثم كلف دولته من ابلغ جميع المديرين أنه يرجو منهم أن لا يؤلفوا الوفود برئاستهم لتهنئته لان الذين يرغبون في مقابلته يعرفون كيف يصلون اليه

ومادمت أتكلم عن دمقراطية سعد باشا فأرى أن المقام مناسب لأن أقص على القراء حكاية اتفقت لدولته في مسجد

وصيف وسمعتها من احد المقربين منه فان دولته أمر يوماً باعداد سيارته ولما اعدت له ركبها مع سكرتيره الخاص الاستاذ الجزيري وطلب من السائق أن يقلهما الى زفتى وكان ينوي أن يزور يوسف بك الجندي في مكتبه غير أنه لم تكد السيارة تبلغ باب البلد حتى لمح جماعة من أولادها دولة الرئيس فعرفوه وأحاطوا بسيارته وأخذوا يهتفون بحياته نخشي دولته ان هو واصل السير الى داخل المدينة ان تقام له مظاهرة كبيرة فأشار على السائق بأن يرجع القهقرى ويسير في الطريق الذى يؤدي الى طنطا فلما ابتعدت السيارة عن زفتى أمر بتوقيفها ثم التفت الى الهاتفين وكانوا قد تعقبوه ، وقال لهم « الى شاطر فيكم ينادي لي يوسف بك الجندي » فانطلقوا لسيقانهم الريح اذ أراد كل منهم أن يحوز قبل رفيقه فخر تلبية نداء سعد باشا وبعد ربع ساعة أقبل عوض بك الجندي شقيق يوسف بك الجندي ووراءه « مظاهرة » كبيرة مؤلفة من جميع طبقات زفتى فسأله سعد باشا عن اخيه فأجابه بأنه غائب في المنصورة فكلفه ان يبلغه تحياته ودعاه واياه الى تناول الغداء على مائدته في اليوم التالي ثم شكر الجموع التى احتشدت لتحيته وأمر السائق بالعودة الى مسجد وصيف

***

وفي نحو الساعة الواحدة بعد الظهر دعانا الرئيس الجليل الى تناول الغداء معه كما يدعو كل يوم الذين يقصدون لزيارته والسؤال عن صحته فنهضنا الى قاعة الطعام وترأس هو المائدة وكان دولته يأكل تارة من الالوان التى تقدم الينا وطوراً يؤتى له

بالوان اخرى أخف من الواننا وأسهل هضماً منها مراعاة لصحته وكان حفظه الله يتفقد ضيوفه من حين الى آخر فيقول لهذا انه لا يأكل مافيه الكفاية ويسأل ذاك لماذا لم يأكل من اللون الفلاني واتفق ان احدنا أصيب قبيل الغداء بانحراف بسيط لم يمكنه من الجلوس معنا على المائدة فسأل الرئيس عنه غير مرة واهتم بشأنه وطلب من الدكتور حامد أن يعوده ولما وافانا الى المائدة عطف عليه دولته بعبارات لطيفة وأمر الخدم بان يقدموا اليه طعاماً خفيفاً حتى لا يتعب من الأكل

ولاحظنا في آخر الغداء ان دولة الرئيس الجليل تعب فرجا منه أحدنا أن يدعنا ويصعد الى غرفته ليأخذ قسطه من الراحة ولكن دولته أبى ان يتركنا وحدنا وظل يحادثنا حتى فرغنا من أكل الفاكهة وشرب القهوة فقال لنا « انتم في بيتكم وانا اشكركم جداً على زيارتكم ولكن اسمحوا لي بان استريح قليلاً » ونهض فنهضنا وراءه واقبلنا عليه فحييناه ودعونا له بالصحة والعافية وطول العمر فغادرنا وهو يقول « مرسي ! مرسي ! متشكر ! »

وبعد ما استرحنا قليلاً ودعنا الاستاذ الجزيري الذي مكث عند الرئيس وركبنا السيارة وعدنا الى العاصمة فبلغناها بعد ساعتين والسنتنا تلهج بما رأيناه من كرم سعد البلاد ومكارم اخلاقه

سعد ومعيشته في مالطه

قصدنا الى سعادة حمد الباسل باشا ورجونا منه ان يفضي الينا بتفصيل ما جرى لسعد وصحبه الثلاثة عند نفيهم الى مالطة في بدء الثورة المصرية وبوصف معيشة الرئيس الجليل في منفاه فقابلنا سعادته بما جبل عليه من الرقة والبشاشة واجلسنا في قاعة تطل على الشرفة التي القى منها « سعد زغلول » خطابه الاول عن الوفد المصري والغاية من تأليفه ، وهو الخطاب الذي نودي فيه لاول مرة باستقلال مصر وسقوط الحماية البريطانية عنها وكان ذكرى هذا الخطاب وذكرى « سعد » وهو يلقيه بصوته الجهوري الرنان حركتا في فؤاد «حمد» ما يكنه من الذكريات الوطنية فانطلق يحدثنا عن حكاية نفيهم الى مالطه بافاضة وبلاغة كأنه يتلو علينا تلك الحوادث من كتاب نقش في اعماق القلوب وحفر بحروف ثابتة خالدة على لوحة الاذهان فلم تمح على مر الايام حدثنا حمد باشا فقال :

«قبيل غروب شمس يوم من الايام اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا وصحبه الثلاثة ونقلنا جندها الى ثكنات قصر النيل وهناك ابلغونا اننا سنسافر في صباح الغد وانه يحسن بنا ان نأخذ معنا من الثياب والملابس ما يكفينا لشهر على الاقل فسألنا

الى ابن سنسافر فأجابونا باننا سننقل الى بقعة غير معلومة فالححنا في معرفة هل تقع هذه البقعة في الاراضي المصرية أو فيما يجاورها من الديار الفلسطينية ام اننا سنجتاز البحار وننفى الى غير بلاد الشرق من الامصار فكان الجواب ان الجهة التي سنرحل اليها يجب أن يبقى اسمها مجهولا عنا فاذعنا للقوة واستسلمنا لمشيئة خالقنا ورضي رجال السلطة بان نجلب من منازلنا ما نحتاج اليه من الحاجيات في رحلتنا كما انهم سمحوا لكل منا بان يستصحب معه خادمه

« وفي صباح اليوم التالي وضعت امتعتنا في سيارة من سيارات الجيش الكبيرة ودعينا نحن الى ركوب سيارات صغيرة نقلتنا من ثكنات قصر النيل الى محطة العاصمة ووقفت بنا على رصيف القطار الذى اقلنا في الساعة الحادية عشرة الى بور سعيد وكان يحرسنا في دوانا اثنان من الضباط واربعة من جنود الشاكي السلاح

« ولما دنا القطار من الاسماعيلية اخذنا نتساءل هل سننزل فيها توطئة لنقلنا الى السويس ومنها الى سيلان أو الى غيرها من بلاد الله الواسعة ام سنستأنف سفرنا الى ما بعدها من المحطات فلما بلغنا الاسماعيلية ولم يبد من حراسنا حركة أو اشارة ادركنا اننا قاصدون اما الى القنطرة فنذهب منها الى فلسطين أو الى بور سعيد لنركب منها متن البحر الابيض المتوسط ، ولكننا لم ننزل في القنطرة فقلنا الى بور سعيد اذن ، ولما وصلنا اليها قادونا الى باخرة كانت راسية في مينائها واسمها « كالدونيا » ولم يكن

فيها سوى جند وضباط من رجال الجيش البريطاني وكانوا مسافرين الى أوربا

« وركبنا الباخرة ونحن نجهل الجهة التى نقصد اليها ولكن لم تكد الباخرة تقلع بنا وتمر امام تمثال « دي لسبس » حتى جاءنا الضابط المكلف بحراستنا واخبرنا اننا ذاهبون الى مالطه التى اختارها ولاة الامور منفى لنا فاعترضنا عندئذ على استصحاب خدمنا معنا وقلنا انه اذا كنا نحن قد اتينا عملا لا تظن السلطة العسكرية اننا نستحق النفي عقابا عليه فما ذنب هؤلاء الخدم المظلومين الذين لم يكن لهم في الموضوع ضلع فلما سمع خدمنا هذا الكلام « احتجوا » عليه واقسموا ان يرافقونا في جميع غدواتنا وروحاتنا ويشاركونا في سرائنا وضرائنا .

« وفي اللحظة التى خرجت فيها الباخرة من المياه المصرية قيل لنا ان البحر لا يزال مملوءا بالالغام التى بثها الالمان في كل مرحلة من مراحله لاقتناص بواخر الحلفاء كما قيل لنا انه يجب علينا ان نكون دائماً على استعداد لكي تنجو بانفسنا في حالة حدوث انفجار ، ولكي لا نؤخذ على غرة أخذوا يدربونا مع الجنود الذين كانوا مسافرين معنا على سبل النجاة والخلاص ، فكانوا يعطون كل واحد مناطوقاً من الفلين ويرشدونه الى مكانه في قارب النجاة المعين لنزوله فيه في حالة حدوث انفجار في الباخرة ثم يمثلون رواية الغرق بجميع ادوارها ليتأكدوا من اننا استوعبنا الدروس التى القوها علينا في هذا الشان

« ولما صرنا على مقربة من مالطة توقفت الباخرة عن السير

ثم لم نلبث ان ابصرنا زورقاً بخارياً يدنو منها قادماً من الجزيرة فادركنا في الحال انه الزورق المعد لنقلنا الى البر ولما صار محاذيا للباخرة صعد منه اليها ضابط فظ الطباع شرس الاخلاق فحيانا بعجرفة وخاطبنا بغطرسة قائلا انه لا يسمح لكل منا إلا بحمل حقيبة صغيرة ، اما الحقائب الكبيرة فيجب ان نتركها وراءنا في الباخرة لان لا محل لها في الزورق ، واتفق ان ربان الباخرة كان واقفا بجانبنا ساعتئذ فلما سمع اللهجة التي يخاطبنا بها هذا الضابط دنا منه وقال له انه يحمل توصية بوجوب معاملتنا باحترام فلم يسعه عندئذ سوى الاذعان ورضى بان نأخذ معنا ما نريده من حقائبنا وامتعتنا

« ولما وطأت اقدامنا البر الفينا مركبة صغيرة ذات عجلتين في انتظارنا فاركبنا فيها سعد باشا واحد الاصحاب وسرت انا والصاحب الرابع بجانبها على الاقدام

« وبعد ما سرنا مسافة طويلة وصلنا الى قشلاق «فردالا» الذي اختاره ولاة الامور البريطانيون ليعتقلونا فيه فخصصوا لكل واحد منا غرفة للنوم وغرفة للجلوس وحماما وكانت غرفنا كلها واقعة في صف واحد بعيداً عن اماكن الجنود ، فاسترحنا واغتسلنا وابدلنا ملابسنا ثم سألنا عن التدابير التي اتخذت لاعداد طعامنا فأجابونا انهم سيصرفون لنا كل يوم كذا دراهم من الخضار وكذا دراهم من الزبدة فاعترضنا على هذه المعاملة فقالوا انهم سيختارون لنا طاهياً مالطياً بارعاً ليطبخ لنا ما نشاء من الاطعمة واصناف المأكولات بما يصرفونه لنا كل يوم من المواد الغذائية

وزادوا على ذلك انه اذا كنا نبغي ان نحصل على مأكولات اخرى فوق طاقتنا ان نحصل عليها من « كانتين » الضباط على أن ندفع نحن ثمنها من مالنا الخاص فسررنا بذلك وجمعنا ما كان معنا من مال يسير وأخذنا ننفق منه على شراء ما كان يطيب لنا من المأكولات والاطعمة ، وطلبنا من القائمين على حراستنا أن يسمحوا لنا بمكاتبة اهلنا ليبعثوا الينا بما نفتقر اليه من مال فقالوا لنا انهم سيؤدون عنا هذه المهمة ، وفعلاً اخبرونا بعد يومين ان كلا منا تلقى خمس مئة جنيه من مصر وان هذا المبلغ اودع باسمه في صندوق مكتب القشلاق فكنا اذا اشترينا شيئاً من « الكانتين » امضينا على الفاتورة فيأخذها مديره ويقبض قيمتها من مكتب القشلاق الذي كان يخصم ما يدفعه عنا من المال المودع عنده باسمنا

« وبعد ما استقر بنا المقام في مالطة قال لنا سعد باشا في يوم من الايام انه فرغ من اعداد برنامج معيشتنا في منفانا فخصص بعض ساعات النهار للدرس والمذاكرة وخصص ساعات اخرى للمطالعة والمحادثة وخصص ما بقي من الساعات للتريض والتفكه واذ كان رجال القشلاق يطفئون انواره الساعة التاسعة مساء طلبنا ان يدعوا انوار غرفنا مضاءة حتى الساعة الحادية عشرة فاجابونا الى طلبنا

« والتقيت في مالطة برجل المانى (من المعتقلين الالمان) عرفته في الفيوم وكان يعطيني دروساً في اللغة الانجليزية فسررت بلقائه ولما عرف سعد باشا تاريخ علاقتي به كلفني أن اطلب منه ان يعطيه دروساً في اللغة الانجليزية فرضي الرجل عن طيب

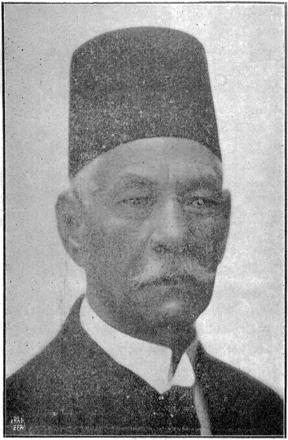

سعد المفكر

خاطر واخذ الرئيس يتلقن تلك اللغة على يده

« وكنا حتى ذلك الحين نجهل تماماً ما حدث في مصر من الحوادث عقب ابعادنا عنها اذ ان القائمين على حراستنا كانوا يحولون دون تسرب الجرائد الينا ولكن احد الضباط المكلفين بمراقبتنا قال لنا مرة « أنكم غادرتم مصر بعدما صيرتموها شعلة من نار » فادركنا ان في مصر حالة غير عادية ولكننا لم نشأ ان نكثر من السؤال والاستقصاء كي لا تحوم الظنون حولنا

« وبعد يومين دخل علينا طاهينا الالماني وأخرج من حذائه نسخة من جريدة التيمس ودفع بها الينا فقرأنا فيها ان الشعب المصري هاج وماج على أثر القبض علينا وابعادنا وان مصادمات شتى وقعت بين الطلبة والجنود البريطانية وان الطيارات الانجليزية القت قنابلها على عربان الفيوم وقتلت اربع مئة منهم وان الجماهير تبدي مقاومة في كل مكان وان وان . . . الى غير ذلك من اخبار الحركة التي كنا نجهل امرها كل الجهل فترحمنا عندئذ على الموتى وادركنا ان الشعب المصري جاد في نهضته ماض في نضاله فاقسمنا ساعتئذ على ان نفنى في خدمته وفي سبيل الدفاع عن قضيته وان ننبذ الحياة المادية ولا نهتم الا بالشؤون المعنوية وبتنا على أحر من جمر نرقب ما تخبئه لنا الايام من مفاجآت

« وكان القائمون على حراستنا يسمحون لنا بالتنزه في انحاء الجزيرة والتجول في ارجائها مرتين في الاسبوع ولكنهم كانوا يطلبون منا في كل مرة ان نوقع تعهداً نتعهد فيه بشرفنا بان لا نفر ولا نحاول ان ندبر سبيلا للفرار وان لا نخاطب احداً ولا

تعطي نقوداً لاحد وان لا نمس باذى احد جنود صاحب الجلالة البريطانية او احد جنود الحلفاء ـ ومع اننا كنا دائماً نمضي هذا التعهد فان احد الضباط كان يصحبنا دائماً في غدواتنا وروحاتنا « بصفة دليل » على ما كان يقال لنا

وكان هذا الضابط يتفقدنا صباحاً ومساء ، ففي الصباح كان يقرع باب غرفة كل منا ويقول «جود مورنتج» (١) فاذا اجبناه « جود مورنتج » تأكد من وجودنا وانصرف واذا لم يجدنا في الغرفة ظل يبحث عنا الى ان يقول لنا «جود مورنتج» . . .

وكان في المساء يعيد الرواية عينها فيقرع باب كل غرفة من غرفنا ويقول « جـود نايت » (٢) فنقول له « جود نايت » واذا لم يسمع جواباً من داخل الغرفة انطلق يبحث عن صاحبها حتى اذا وجده قال له « جود نايت » أي انه متمسك جداً « بجود مورنتج » و«جود نايت» وانه لا يستطيع ان يعمل في الصباح بدون ان يصبح علينا ولا يستطيع ان ينام في المساء بدون ان يمسي علينا . . . كان رقيقاً جداً

« وزارنا مرة أخرى اللورد ملون حاكم مالطه العام بلباسه العسكري مع اركان حربه فتفقد غرفنا وسأل عن التدابير التي اتخذت لاراحتنا وتسهيل سبل اقامتنا ومعيشتنا ثم أقبل علينا يسألنا بكل احترام واكرام هل نحن في حاجة الى شيء نرغب فيه فيقضيه فشكرنا له عنايته وسألناه عن موعد اوبتنا الى مصر فقال انه لا يعلم شيئاً في هذا الصدد

---

(١) أي اسعدتم صباحاً (٢) أي اسعدتم مساء

« وبينا كنا جالسين ذات يوم نتجاذب اطراف الحديث دخل علينا ضابط كبير وقال لنا استعدوا للسفر غداً فسيطلق سراحكم ويسمح لكم بالسفر الى باريس وما لبث الخبر ان ذاع بين اخواننا المصريين المعتقلين في مالطة فاقاموا لنا حفلة شاي كبيرة حضرها الالمان الذين كانوا معتقلين معهم ايضاً وبعد ماخطب كثيرون من اخواننا المصريين نهض سعد باشا وردعليهم بخطاب بليغ يفيض حماساً ووطنية فقوبل بالتصفيق الشديد والهتاف المتواصل لمصر ، للوطن المفدي

« وفي اليوم التالي قادنا الجند الى المرفأ وظلوا يحرسوننا ويمنعوننا عن الاختلاط بالاهلين والتكلم معهم الى ان وصلت الباخرة التي كان مقرراً ان تقلنا الى فرنسا ولما صعدنا اليها دنا منا كبير الضباط وقال لنا « انتم احرار الآن ياسادة » ثم اقبل على كل منا وصافحه مودعاً برقة وبشاشة

« وكم كانت دهشتنا عظيمة حين ظهر لنا ان هذه الباخرة هي الباخرة « كاليدونيا » التي نقلتنا من بور سعيد الى مالطة — بل كم كانت دهشتنا اعظم حين اجتمعنا فيها بسائر اخواننا من اعضاء الوفد المصري — فذرفنا الدمع من شدة اغتباطنا وابتهاجنا وشكرنا الله على هذا اللقاء الفجائي الذي ادخل السرور الى قلوبنا وبعث روح الامل في نفوسنا

« ثم استأنفنا السفر الى فرنسا ونحن نعلق امالا واسعة على نبي آخر الزمان الدكتور ولسن صاحب المبادىء الاربعة عشر الخاصة بمصير الشعوب الصغيرة ، المهضومة الحقوق ، المساوبة

الحرية والاستقلال ، ولكن في اليوم التالى لوصولنا الى باريس فاجأ نا ولسن بقراره الذي وافق فيه على حماية بريطانيا العظمى على مصر

« واني لا اصف لكم مبلغ ما استحوذ علينا من الاندهاش والاستغراب لما اطلعنا على هذا القرار ولكن حسبي ان اقول لكم ان عزيمة سعد كانت اقوى من ان يؤثر فيها ولسن أو غير ولسن فجاهر بان الوفد المصري سيمضي في جهاده حتى الرمق الاخير من حياة اعضائه

« اجل ! لقد ثبت الوفد المصري ونحن اليوم كما كنا بالامس ثابتون على مبادىء سعد ، ثابتون على حب سعد »

سعد بين عدن وسيشل

كان الاستاذ مكرم عبيد قد دوّن مذكرات ضافية عن حياة سعد وصحبه في منفاهم في ميناء « عدن » اولاً ثم في جزائر « سيشل » النائية ولكن السلطات البريطانية عثرت على هذه المذكرات التاريخية عند تفتيشها لداره في بعض الظروف السياسية فاخذتها ولم ترجعها ففقدت الامة بمصادرتها صفحة مجيدة من اسطع الصفحات واغرها في سيرة سعد القومية ولكن ذاكرة وزير الشباب متوقدة نيرة ولئن كنا قد حرمنا المذكرات التي خطتها يده فانا لم نحرم بعض ما وعته حافظته فانتهزنا فرصة اجتماعنا به عقب عودته من اوربا واقتبسنا من حديث افضى به الينا المعلومات التاريخية الطريفة التي نسردها للقراء فيما يلي :

في صباح اليوم الذي اذيع فيه تصريح ٢٨ فبراير في مصر كان الفقيد العظيم وصحبه جالسين في القلعة التي اعتقلوا فيها في عدن يتناولون طعام الفطور فدخل عليهم ضابط برتبة كولونل كان يقوم بأعمال وكيل الحاكم وقال لهم انه تلقى امراً بوجوب ابلاغ سعد باشا انه سينقل من عدن الى جهة اخرى غير معلومة وان لدى دولته ساعة ونصف ساعة لكي يعد امتعته توطئة لانتقاله الى السفينة الحربية التي ستقله الى منفاه الجديد. فقابل

سعد باشا هذا النبأ الفجائي برباطة جأش عظيمة وقابله صحبه بهياج شديد فسألوا الكولونل عن الحكمة في فصل الزعيم عنهم فأجابهم انه لا يعلم عن ذلك شيئاً وانه انما ينفذ التعليمات التي صدرت اليه من رؤسائه . فسألوه هل يستطيعون مرافقة دولته ليسهروا على صحته وراحته في خلال سفره فكان جوابه انه لا يملك سلطة نقض التعليمات التي يعمل بها أو سلطة تحويرها وتعديلها فقرروا ان يرفعوا احتجاجاً على هذه المعاملة الى المقامات العليا فحاول سعد باشا ان يثنيهم عن عزمهم لئلا يؤخر هذا الاحتجاج في عودتهم هم الى مصر فلم يسلموا بوجهة نظره وأصروا على وجوب مرافقته الى النهاية وفعلا عهدوا الى الاستاذ مكرم في كتابة الاحتجاج باللغة الانجليزية وقد طلبوا فيه ان يسمح لهم بمرافقة الزعيم أو اذا كان ذلك متعذراً لصغر السفينة فلا اقل من ان يسمح لأحدهم بأن يكون في صحبته وأرسلوا الاحتجاج مع رسول الى سراي الحاكم

وبعد ساعة ونصف ساعة توجه سعد باشا الى المرفأ ليركب السفينة التي اعدت لسفره وسمح لصحبه بمرافقته اليها فساروا حوله وهم يبكون ويتحسرون بينما كان دولته يبذل جهده ليسكن من روعهم وهو رابط الجأش ثابت الخطى ولما صعد الى السفينة وأزفت ساعة الفراق رفع منديله ملوحاً وانشد بصوت مؤثر قائلا :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

ثم عاد صحب سعد الى القلعة صامتين واجمين وقد ساورهم شعور أليم وهو أن وداعهم للرئيس في ذلك اليوم قد يكون

الوداع الأخير ولكنهم ما كادوا يعودون الى القلعة ويستقرون فيها حتى تلقوا نبأ من الحاكم بان المراجع العليا أذنت في ان يرافق أحدهم سعداً الى منفاه الجديد فاغتبطوا بهذا النبأ بقدر ما كان الظرف يسمح به من اغتباط وبعدما بحثوا في الامر ملياً ورجعوا الى سعد باشا في قرارهم اختير الاستاذ مكرم ليرافق دولته في سفره فحزم أمتعته وانتقل الى السفينة وكانت ما تزال راسية في الميناء وسمح لسائر صحب سعد بالصعود اليها لتوديعهما فيها وبعد يومين أقلعت بهما وهما يجهلان وجهة سيرها ولكنهما تذكرا أنهما سمعا وهما في عدن أن سعد باشا سينقل الى سيشل فتوقعا ان يذهبا اليها غير أنهما لم يتمكنا من تحقق ذلك لأن رجال السفينة كانو يمتنعون عن اجابتهما على كل سؤال في هذا الصدد فاذا ما انقضى عليهما ثلاثة أيام في عرض البحر أقبل عليهما ربانها وأخبرهما أنهما ذاهبان الى سيشل وأمضى سعد باشا أيام السفر متعباً لأن السفينة كانت صغيرة لا تزيد حمولتها على تسعمائة طن وكان الاستاذ مكرم ينام على سرير صغير يقابل السرير الذي كان الرئيس ينام عليه في « القمرة » التي أفردت له

ولما وصل سعد باشا والاستاذ مكرم الى « ماهي » عاصمة جزائر شيشل هرع سكانها لمشاهدتهما وكانوا يحيون سعد باشا باحترام واكبار لما سمعوه عن اسمه ومقامه بين قومه فكان يرد لهم التحية باسماً شاكراً وبعدما قابلا الحاكم ابلغا أنهما سيقطنان في دار اختيرت لاقامتهما على ربوة تبعد عن البلد نفسها مسافة غير قصيرة فأعرب سعد باشا عن رغبته في مشاهدتها فحملوه اليها بمركبة .

صغيرة يجرها رجل من الوطنيين بيديه وحملوا الاستاذ مكرم بمركبة مثلها ، فلما وصل الرئيس الى الدار وتفقد نظامها قال انها تبعد عن قلب البلد مسافة عظيمة وانه لو احتاج الى طبيب أو الى دواء لفاضت روحه قبل ان يصل اليه الطبيب او الدواء وبعد اخذ ورد طويلين اقتنعوا بعدالة طلبه فأسكنوه مع الاستاذ مكرم في دار قاض كان غائباً بالاجازة

وبعد أيام نقلوهما الى جزيرة «ليلونج» وهي تقوم على مقربة من «ماهي» فسر سعد باشا بهذا الانتقال لان المناظر الطبيعية فيها كانت تأخذ بمجامع القلوب وقد اعد لسكنه دار فسيحة تحيط بها حدائق غناء فلما استقر بهما المقام فيها جعل سعد باشا يقول للاستاذ مكرم ان المرء يتمنى لو يتاح له ان يعيش مدة طويلة منعزلاً عن الناس وعن ضوضاء المدن في مثل هذه الجنة الفيحاء وكان دولته يعتقد وهو يقول هذا القول انه لن يعود الى مصر حياً والا ما الغاية من نفيه في تلك الجزائر البعيدة النائية بعد ما كان معتقلاً في عدن ثم يعود فيقول ان الامر موقوف على ثبات الامة ولي فيها عظيم الثقة ؟

وكان الرئيس الجليل يمضي اوقاته في سيشل بالتريض والتنزه تارة ويتجاذب اطراف الحديث مع الاستاذ مكرم تارة اخرى وكانت احاديثهما تتناول جميع الموضوعات الفلسفية والاجتماعية والادبية علاوة على البحث في المراحل السياسية التي اجتازتها القضية الوطنية وقد قص سعد باشا على الاستاذ مكرم في اثنائها علاقته بالثورة العرابية وببعض الحوادث التي حدثت عند انشاء

الجمعية التشريعية. ولما اكتشف دولته ان الله حبا الاستاذ مكرم بصوت شجي كان يلح عليه بأن يسليه بانشاد بعض القصائد المشهورة ويقول الاستاذ مكرم انه كان للفقيد ولع خاص باشعار سامي البارودي باشا .

ثم خطر لسعد باشا ان يتعلم اللغة الانجليزية على يد الاستاذ مكرم فعكف على تلقينه اصولها ومبادئها بأسهل الطرق واقربها الى الفهم فأظهر رحمه الله عبقرية مدهشة في تفهم عباراتها واستيعاب الفاظها . ومما تحسن الاشارة اليه هنا انه كان يدرس الانجليزية في الكتاب الذي وضعه المستر مكدونلد رئيس الوزارة البريطانية الحالية عن «الاشتراكية» وكان من عادته اذا قرأ كلة انجليزية تشابه بنطقها كلة فرنسية يعرفها يطلب من الاستاذ مكرم ان يفسرها له فاذا جاء تفسيرها مخالفاً لتفسير الكلمة الفرنسية يقول له «أنت مخطىء» ثم يكب على مناقشته فيها بما اشتهر به من حب الجدل والمناقشة وأخيراً فكر الاستاذ مكرم في حل لطيف لهذه الحالة فطلب من الرئيس الجليل أن يدونا الكلمات المختلف عليها على ورقة مستقلة ويحتكما في تفسيرها الى شخص يعرف اللغة الانجليزية غيرهما

وبعد أيام ابلغ سعد باشا أن صحبه الذين تركهم في عدن سيلحقون به. وفي اليوم المحدد لوصولهم انتقل دولته مع الاستاذ مكرم الى جزيرة «ماهي» لاستقبالهم ولما رآهم نازلين من الباخرة التي أقلتهم اليها انهمرت الدموع من عينيه وقال : « ان الله سبحانه وتعالى لم يشأ ان أفارق هذه الحياة وأنا بعيد عن

أولادي » فدعوا له بطول العمر وكان سرور الجميع باجتماع الشمل يفوق الوصف

وكان أول ما فعله سعد باشا بعدذلك ان سأل عاطف بركات باشا عن الكلمات التي اختلف مع الاستاذ مكرم على تفسيرها فجاء شرح عاطف باشا لها مطابقاً لشرح الاستاذ مكرم فضحك سعد باشا واقتنع

وكانت السلطات المحلية قد استعدت لايواء النزلاء الجدد فأعدت لسعد باشا وللاستاذ مكرم داراً تسعهما مع خدمهما وأعدت للنحاس باشا وفتح الله بركات باشا وعاطف بركات باشا وسينوت حنا بك داراً اخرى على مقربة من الدار الاولى ولكن الجميع كانوا يتناولون طعام الغداء والعشاء على مائدة سعد باشا ليتسلى بوجودهم حوله ثم انتقل دولته والنحاس باشا والاستاذ مكرم وسينوت بك الى دار فخمة تقع فوق ربوة جميلة قدمها لهم وجيه مسلم عاد الى الجزيرة بعد غياب طويل عنها وظل فتح الله باشا وعاطف باشا يقيمان في الدار الاصلية ولكنهما كانا يصعدان الى قمة الربوة عند حلول ساعة الاكل لينضما الى اخوانهما حول مائدة سعد باشا . ولما استقر قرار ولاة الامور البريطانيين على نقل الرئيس الجليل من سيشل الى جبل طارق أخذ معه صورتهم الفوتوغرافية . وتروي ام المصريين انها لما لحقت به هناك كانت تراه كل يوم يضم تلك الصورة الى قلبه وهو يقول : « هؤلاء هم أولادي فليحرسهم الله بعنايته »

سعر وحياته في سيشل وجبل طارق (١)

كان الرئيس يستيقظ من نومه مبكراً جداً حوالى الساعة الخامسة والنصف أو السادسة ، وبعد ان يغسل وجهه ويرتدي ثيابه يجلس خارج غرفته بالبلكون يطالع درسه الانجليزي وكان يهتم به كثيراً جداً ، حتى بلغ الامر منه انه كان يجلس الساعات الطوال يطالع تلك اللغة بمساعدة مكرم بك، وبلغ من مغالاته في الانهماك بها ان كان يقرأها حتى في فراشه وابان ساعات نومه ولم تقل ساعات مذاكرته يوماً عن ست ساعات على اقل تقدير حتى أن اصحابه كثيراً ما اظهروا عدم ارتياحهم الى انهاك قواه العقلية بهذا الشكل ، وألحوا باللائمة كثيراً على الاستاذ مكرم الذي كان يقوم بتدريسها له، وكان يدرسها في بعض الاحيان ايضاً على عاطف بركات باشا ولكنه كان يفضل درسها على الاستاذ مكرم ، وكنت اساعده دائماً في تفهم معانيها ومخاطبته بها ، وتمرينه عليها ، وكان الاستاذ مكرم يدعوني لذلك احياناً مساعد معلم الرئيس على سبيل المزاح

قلت انه كان يجلس كل يوم في الصباح بالبلكون بعد ان يرتدي ثيابه يطالع كتاباً في الانجليزية ، الى ان يحين موعد

---

(١) من ذكريات محمود افندي عبد الله تابع سعد باشا

الفطور وفي كثير من الاحيان كان يستيقظ عاطف باشا مبكراً أيضاً ويجلس بازاء الرئيس لمطالعة الدرس الانجليزي ، وفي الساعة الثامنة يكون أول الداخلين الى غرفة المائدة مع عاطف باشا ثم يتبعهما بعد ذلك النحاس باشا وفتح الله باشا وسينوت بك فالاستاذ مكرم الذي كثيراً ما يكون هو الاخير في الحضور الى المائدة

وفي اثناء الطعام يتجاذبون اطراف الحديث الذي يدير دفته الرئيس والاستاذ مكرم غالباً وعند انتهاء الطعام يجلس الرئيس مع الاستاذ مكرم الى درسه الانجليزي ، وينفرد عاطف باشا بركات بكتاب يطالعه او بمذاكرة اللغة الفرنسية التي كان مولعاً بها ويساعده فيها احياناً مصطفى النحاس باشا ويجلس فتح الله باشا لتلاوة القرآن احياناً وأحياناً كان يجلس للحديث مع عاطف باشا وسينوت بك وهكذا الى ان يقرب وقت الغداء فيقوم الرئيس لاخذ حمامه اليومي ثم يخرج الى غرفة المائدة حيث تكون الساعة الاولى بعد الظهر ، وبعد الانتهاء من الطعام يخرجون الى النوم مباشرة ويستيقظون منه حوالي الساعة الثالثة والنصف لتناول الشاي ويذهبون جميعاً عدا الرئيس وأنا للنزهة اليومية خارج الحصن صحبة الضابط التوبتجي لمدة ساعة من الزمن أو في المسافة الواقعة ما بين الحصن وحظيرة الابقار القريبة منه ، ويتبعهم عن بعد جندي من الاهالي

وكان الباعث على عدم خروج الرئيس كل يوم للنزهة هو انه كان يرى مشقة عظيمة في الصعود والهبوط من الوادي الى

البيت وكان يكره منظر « الديدابانات » المنتشرة حولنا هنا وهناك لشدة حبه للحرية الامر الذي جعله ينفر من كل مظهر من مظاهر التقييد . وبهذه المناسبة اذكر انه عند ما صعدنا لاول مرة الى سجننا والقينا نظرة على الغرف واثاثها البسيط ومحتوياتها القليلة نظر معاليه ملياً ثم قال هذا حسن .. فاجبته وكنت بقربه قائلا وسنكون بمعزل عنهم لا يرونا ولا نراهم. فقال احسنت جداً وهذا ما أردت أن اقوله

ثم التفت الى فتح الله باشا وسينوت بك ومدح لهما دقة ملاحظتي تواضعاً منه وتلطفاً وفي اثناء ذلك كنت اسير بصحبة الرئيس جيئة وذهاباً في البهو ونتحادث بالانجليزية لاجل تمرين معاليه ،وعند عودتهم يجلس سعد باشا والاستاذ مكرم وعاطف باشا والضابط النوبتجي وسينوت بك للعب الورق ، ويجلس فتح الله باشا والنحاس باشا للعب الدومينو ، وقبل أن يحين ميعاد العشاء الذي كنا نتناوله عادة حوالى الساعة الثامنة يقوم الرئيس وصحبه للسير في البهو مدة نصف ساعة، وأحياناً كنت امارس ومصطفى النحاس باشا وفتح الله بركات باشا والاستاذ وليم مكرم بعض الحركات الرياضية من قفز او ركض ، وبعد تناول طعام العشاء الذي كانوا يدعون اليه في كثير من الاحيان الضابط الانجليزي النوبتجي، يجلسون للحديث والسمر فيقص عليهم معالي الرئيس شيئاً مما وقع وراءه ابان الحوادث العرابية وبعدها

وكثيراً ما كنا نفتقد معالي الرئيس فلا نجده .فيذهب الاستاذ مكرم من جهة وانا من جهة اخرى فنعثر به سائراً حول

الجزيرة على شاطىء البحر الرملي وقدكان معاليه يحب السير على قدميه كثيراً جداً وكان يسير بخطوات شاب بارز الصدر مرتفع القامة ثابت القدم

واحياناً كنا نذهب جميعاً فنجلس على شاطىء البحر مفترشين الرمل الناعم النظيف وكنت ابحث لهم عن ودع يلعبان به السيجة

وفي بعض الليالي كان يجلس الرئيس والاستاذ مكرم ويبدأ الاستاذ مكرم بالغناء بصوت مطرب خلب ويصغى اليه الرئيس بسرور وكان يساعده في ضبط نغمة الالحان احياناً فيوقع الرئيس الغناء وينشده الاستاذ مكرم بصوت مطرب للغاية

واحياناً يتناول الرئيس كتاباً من الشعر ويتلو بعضاً من القصائد بينا نصغى اليه وكان معاليه يحب الشعر السلس غير المقعد ويقول «ان الشعر الجيد على ما ارى هو ما يفهمه القارىء والسامع لاول وهلة . اما ذلك الذي يحتاج الى اعمال الفكر في تفهم معناه فليس في نظري بشعر جيد» وكان معاليه والاستاذ مكرم يميلان الى شعر محمود سامي باشا البارودي وخاصة ما قاله وهو في منفاه عن مصر وكانا يتفاءلان خيراً به وكثيراً ما رددا ابياته بالغناء والترتيل

في جبل طارق

علمنا عند قدومنا الى جبل طارق ان للرئيس مطلق الحرية في الذهاب والاياب داخل حدود جبل طارق على شرط ألا يتعدى الارض الانجليزية

وقد استضدروا من معاليه قسماً بعدم محاولة ترك جبل طارق بدون تصريح له منهم بذلك

ورغم ذلك فانهم وضعوا للرقابة رجالا من البوليس الملكي يسيرون وراء معاليه اينما سار وكانو ظاهرين ولكن لما اظهر الرئيس عدم ارتياحه من هذه المراقبة الظاهرة الى رئيس البوليس المستر كوكلان تحولت المراقبة فصارت مستترة وكان أولئك الرجال المراقبون من سكان البلاد وهم يجيدون الانجليزية جداً ويتكلمون الاسبانية كذلك وكثيراً ماكان معاليه يذهب الى السوق على قدميه وهو يقع في اسفل الصخرة ويبعد عن البيت نحو ٤٥ دقيقة فيبتاع شيئاً من الجرائد وقليلا من الفاكهة

وكان في كل صباح يتنزه في حديقة المنزل نحـو ٢٠ دقيقة قبل الفطور فيسير مسافة ميل ونصف ميل ثم يعود الى قراءة المجلات والجرائد الانجليزية (التي كنت اساعده على تفهم ما يجيء فيها بخصوص مصر) وغيرها

وكان كذلك يقوم بهذه النزهة بعد ظهر كل يوم أما في الليل فلا يخرج وكان الناس اثناء مروره في الطريق يشيرون اليه بالبنان ويتهامسون باسمه

وقد لاحظ معاليه بعد قليل من وجودنا هناك ان الطربوش يستلفت انظار الناس فاشترى قبعة كان يلبسها كلما خرج للتنزه

واحياناً كنا نستقل عربة تمر بنا حول الصخرة بين طلولها القديمة وقد رأينا فيما رأينا برجاً يقول الناس ان بانيه هو طارق ابن زياد ولم يبق منه الا رسومه وقد احاطته الحكومة بسور

من الحديد وهو قائم وسط خلاء شاهد لما كان للعرب من مجد أثيل ، وعز تليد

وكانت المراسلات من والى الرئيس في جبل طارق غير ما كانت عليه في سيشل فانها كانت حرة لا رقابة عليها لذلك كنا نتلقى كل يوم وابلاً من الرسائل التلغرافية كما كان يأتينا البريد بكثير من الرسائل البريدية كل عشرة ايام تقريباً من مصر وكل اسبوع من أوروبا

ونشرت مرة جريدة اسبانية تصدر هناك مقالة مطولة شديدة اللهجة بامضاء انجليزي يقطن مصر اسمه (اميجو) (١) يدعو فيها اهل جبل طارق والاسبانيين الى الاحتفاء بزغلول باشا زعيم مصر الكبير واكرامه بل يدعوهم ايضاً الى الاحتجاج على سجنه والسعي في الافراج عنه ويشرح شيئاً من تاريخ حياته واصله

فكانت النتيجة ان اقفلت السلطة الانجليزية تلك الجريدة يوماً وبعض يوم حتى اعتذر اصحابها وقدموا الضمان على عدم العودة الى مثل هذا العمل وقالوا انها رسالة وصلتهم من مصر وقد نشروها بحسن نية فعادت جريدتهم الى الصدور

وقد أراد الرئيس الاستمرار في تعلم اللغة الانكليزية التي كان يتلقاها في عدن وسيشل على الاستاذ مكرم وكنت اساعده في التمرن على الكلام بها فطلب من الدكتور لوكهد ان يبحث له عن معلم أو معلمة انجليزية لتعطيه دروساً فيها فأتى له الدكتور

(١) هو المستر اميجو التاجر المعروف في بور سعيد وهو صديق قديم للشيخ علي يوسف ومصطفى كامل .

سعد في مسجد وصيف

بشاب من صف الضباط بالجيش الانجليزي يعطيه اربعة دروس في الاسبوع مقابل ثلاثة جنيهات شهريا

وقد تقدم معاليه تقدماً محسوساً فيها وانما كان يحتاج الى زمن طويل لاخراج العبارات لعنايته الزائدة بتركيبها النحوي

اما صحته فاخذت في التقدم منذ وصولنا الى جبل طارق حتى تم شفاؤه من مرض البول السكري فبشر بذلك حرمه تلغرافياً

ولكنه سئم الوحدة فكتب الى حرمه بالحضور الى جبل طارق فوصلت اليه يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مع المرحوم سعيد بك زغلول والسيدة فهيمة هانم التي جاءت بصفة ممرضة لحرم الرئيس وخادم وخادمة

فاستقبلنا هم بالميناء وقد انتظر الرئيس في بناية الحكومة على البحر ودخلت أنا الى آخر الرصيف فكان استقبالهم لي مؤثراً وعانقني المرحوم سعيد زغلول بك شكراً على ماقمت به من التطوع لهذا النفي الطويل فاخذتهم الى حيث كان الرئيس وهناك كان البكاء وصرير الاسنان فقد بكا معاليه وبكت حرمه ولم يمالك احد من الحضور دموعه

وعدنا جميعاً الى المنزل حيث لبس حلة من السرور والسعادة لم تك به من قبل وظل الرئيس وحرمه في صحة جيدة الى وقت أن تركت جبل طارق في نوفمبر سنة ١٩٢٢

سعد من جميع نواحيه

[في الفصل التالى وصف واف للطريقة التي كان الفقيد العظيم يتبعها في العمل ولما اظهره من قوة الشكيمة في تعلم اللغة الفرنسية ثم طائفة من الحكايات والنوادر التي اتفقت له في عهده الاخير وكلها تدل على ما حباه الله به من ذكاء خارق وقوة حافظة نادرة وعلم واسع غزير ووطنية خالصة صادقة ، ويعقب ذلك بعض الملح المختارة من نكات دولته وملحه ، فحديث لمعالى فتح الله بركات باشا عما كان يخالج فؤاد سعد من شعور الشفقة والشجاعة في وقت واحد]

سعد امام مكتبه

كان من عادة الفقيد العظيم المغفور له سعد زغلول باشا ان يكتب تارة بيده وان يملي تارة اخرى ما يريد كتابته على سكرتيره وكان يدون افكاره وخواطره في معظم الاحيان بالقلم الرصاص ما لم يكن جالسا الى مكتبه فيكتب عندئذ بالحبر ، وكان اذا فرغ من خط ما اراد تحبيره على قرطاسه يدعو اليه سكرتيره الخاص ويملي عليه ما كتب ، وكانت كتاباته تبحث عادة في الموضوعات الانتخابية والقانونية او تتناول مقالات حمل عليها بها خصومه السياسيون فيفندها ويبعث برده الى احدى الصحف الوفدية لتنشره في صدر اعمدتها بامضاء مستعار او بدون امضاء وكان اذا اعوزه الوقت في بعض الاحيان وحالت كثرة مهامه دون تمكنه من الكتابة بنفسه يدلي الى سكرتيره بفكرة يبثه عناصرها ودعائمها ويطلب اليه ان يصوغ بها مقالا يرسله الى صحيفة من الصحف المناصرة للوفد كي تنشره على قرائها اظهاراً للحقيقة وتنويراً للاذهان

وكان رحمه الله لا يكتب مذكراته القيمة الا بخط يده وكان من عادته ان يدونها دائماً بالحبر كي لا يزول اثر الكتابة بالقلم الرصاص على مر الايام . وقد كاد دفتر يحتوي على جزء من

هذه المذكرات التاريخية النفيسة يفقد عقب وفاته بأيام اذ رمى به احدهم مع طائفة من الاوراق المهملة في الكناسة التي كانت ستحمل من حجرة المكتبة ، غير ان احد نجلي الاستاذ امين يوسف السكرتير العام المساعد لمجلس الشيوخ كان ماراً في تلك اللحظة امام حجرة المكتبة فوقعت عيناه على ذلك الدفتر فالتقطه وتصفحه وسرعان ما تبين أهميته فحمله الى ام المصريين التي اهتمت للامر اهتماماً عظيما . ومن تلك اللحظة استقر القرار على جمع مذكرات سعد باشا كلها وحفظها في احد المصارف التي كان رحمه الله يتعامل معها خوفا عليها من الضياع . ويقول الذين اسعدهم الفقيد العظيم ابواباً من تلك المذكرات التي سيكون لها شأن عند حلول يوم نشرها انها لا تتناول تاريخ الحركة الوطنية من اولها فقط ولكنها تحتوي على تاريخ دقيق لجميع الحوادث الهامة التي حدثت في حياة سعد باشا منذ ان كان في سلك القضاء

وقد أطلعنا مرة معالي فتح الله بركات باشا على كتاب تلقاه من خاله سعد باشا فألفينا خطه من الخطوط التي يصعب على المرء فكها ما لم يكن متمرناً على قراءتها . غير انه رحمه الله كان يعني دائماً بتوقيع امضائه بدقة . وكان من عادته ان يخط « سعد » في سطر ثم يخط « زغلول » في سطر آخر تحته . وكان طيب الله ثراه يعترف لاصدقائه واعوانه برداءة خطه وكان كلما اشار الى الصعوبة التي يجدها مساعدوه في فك معالمه يغرق في الضحك ثم يقول «والكن الحمد لله ان خط الجزيري(١) أحسن من خطي قليلا »

(١) الاستاذ محمد ابراهيم الجزيري السكرتير الخاص للرئيس الجليل

ومن المأثور عن سعد باشا أنه كان برغم تبحره في اللغة العربية ووقوفه على كنهها وأسرارها يهتم كثيراً بأن تجيء عباراته صحيحة الاسلوب فصيحة الكلمات . ولذلك كان لايجلس للكتابة الا ومعجم « أقرب الموارد » موضوع على مكتبه بالقرب منه ، وكان اذا أراد اعداد مقال هام أو نداء خطير يكثر من تبديل عباراته وتحديد ألفاظه ، حتى انه كان لايجد غضاضة في تغيير معظم جمله ثلاث مرات أو اربعاً ، وكان اذا املى على سكرتيره مقالاً او خطاباً يأخذه منه بعد فراغه من املائه عليه ويراجع عباراته والفاظه بتروٍ عظيم وهو يحمل القلم بيده ليرمج ما يرى وجوب ترميجه أو ليحور ما يحكم بوجوب تحويره أو ليضيف اليه مايدعو المعنى الى الافاضة في البسط والايضاح. ومما كان يبعث سعد باشا على الاكثار من مراجعة كتاباته وتحويلها وتبديلها انه كان يعلق على وزن الجمل واختيار مقاطع العبارات أهمية كبيرة . وكان اذا خامره شك في انسجام جملة من جمله قرأها بصوت مرتفع ليتذوق نغمها في سمعه. وكان رحمه الله يميل الى اطلاع اعضاء الوفد ومن يكون حاضراً في مجلسه من اصدقائه المقربين على ما يكتبه قبل اعطائه للنشر ليبدوا فيه ما يعن لهم ابداؤه من الملاحظات التي كان يتقبلها بصدر رحب ولو صدرت عن سكرتيره ما دام يقتنع بصوابها وصحتها ، وكان برغم سعة اطلاعه كما اشرنا الى ذلك آنفاً لا ينفك عن الرجوع الى كتب اللغة القديمة فيطالع ابوابها بامعان واهتمام كانه طالب علم في العشرين من عمره . وكان يجد لذة خاصة في مطالعة الكتب القديمة التي اعادت مطبعة

دار الكتب المصرية طبعها باتقان في السنوات الاخيرة وهي كتاب نهاية الارب وكتاب التاج وكتاب الاغاني

وكان الرئيس الجليل يميل عادة الى الكتابة بعد انتهائه من مطالعة الصحف المحلية وكان يبدأ دائماً بمطالعة الصحف المعارضة منها فيراجعها من أولها الى اخرها متمعنا في كل خبر من أخبارها وخصوصاً الاخبار التي لها علاقة بالسياسة المصرية ثم يتناول سائر الجرائد فيقرأ أولا الاخبار الخاصة بالوفد المصري ثم يطلع على الاخبار الاخرى واذا كان لديه متسع من الوقت قرأ الصفحات الادبية والعلمية والمقالات السياسية عن احوال البلدان الاجنبية. وكان رحمه الله يمضي اوقات فراغه بالمطالعة في الكتب الفرنسية التي تبحث في القانون والسياسة والتشريع وهذا علاوة على ما كان يطالعه من الكتب الالمانية والانجليزية على يد المدموازيل فريدا وصيفته الالمانية

سعد واللغة الفرنسية

كان سعد « بك » زغلول مستشاراً في محكمة الاستئناف لما وقعت هذه الحكاية

وكان رئيس المحكمة يومئذ قاض يدعى بوند بك

وكان سعد بك لايفقه حتى ذلك الحين من اللغة الفرنسية شيئاً ما ، لا كثيراً ولا يسيراً

فحدث مرة ، ان هيئة المحكمة خلت للمداولة في قضية هامة كانت تنظر

وكان بوند بك في تلك المرة ، رئيساً لهيئة المحكمة ، وكان سعد بك من أعضائها

وفي سياق المناقشة والمداولة أدلى سعد بك برأي قانوني تشريعي على جانب عظيم من الاهمية والخطورة

فالتفت اليه بوند بك وقال له « ان هذا الرأي خليق بان يبدر عن قاسم أمين أو عن غيره من حملة الليسانس »

فقاطعه سعد بك قائلا « يعني ما ينفعش الا حامل الليسانس »

فقال بوند بك « طبعاً »

فسكت سعد

ولم يخطر لاحد أن سعداً صمم في سكوته على تعلم الفرنسية ونيل شهادة الليسانس من عاصمة فرنسا نفسها

ولكن قرار سعد كان قد استقر في تلك الآونة على درس اللغة الفرنسية والاستعداد لاحراز الليسانس من الحكومة الفرنسية لانه رأى أن مقامه لايسمح له بالتردد على مدرسة الحقوق المصرية

وفعلاً أكب سعد من تلك الساعة على تحصيل اللغة الفرنسية وعلم الحقوق في وقت واحد وكان اذا حل فصل الصيف سافر الى فرنسا بالاجازة وقدم الامتحان السنوي أمام لجان الحكومة الفرنسية ، وهكذا ظل يواصل الدرس والتحصيل والسفر الى باريس حتى فاز في آخر الامر باحراز شهادة الليسانس من الحكومة الفرنسية وأخرس « بوند بك »

ويروي الذين كانوا يسافرون يومئذ مع سعد « بك » الى اوربا انه كان يقضي أيام السفر بمراجعة مواد الامتحان وانه كثيراً ماكانوا يفيقون من النوم بعد نصف الليل فيلفونه مكباً على كتبه وملفاته منهمكاً بالاستعداد لامتحانه

متى ولد سعد

تاريخ شهادة الليسانس

تعددت الاراء عقب وفاة الفقيد المظم سعد زغلول باشا في تعداد السنين التي رأى رحمه الله النور فيها فقال بعضهم انه ولد من سبعين سنة وقال البعض الآخر ان سعداً مات عن سبع وستين سنة وعارض غيرهم في هذين التقديرين قائلين انه لما وافت المنية سعداً كان رضوان الله عليه قد تجاوز السبعين

وقد كنا نزور « بيت الامة » يوماً فعثرنا فيه على شهادة الليسانس التي نالها الفقيد المظم من باريس وقد كتبت باسم « سعد زغلول بك » المولود في « ديانا » بمصر في اول يونيو « سنة ١٨٦٠ »

فيكون سعد باشا اذن قد توفى عن سبع وستين سنة ميلادية اذ مما لا ريب فيه انه هو الذي مدّ وزارة المعارف الفرنسوية باسم البلدة التي ولد فيها فقلبوه الى « ديانا » ظناً منهم ان اسم البلدة التي نشأ فيها الفقيد المظم منسوب الى « ديانا » آلهة الجمال

ويؤخذ من هذه الشهادة ان نتيجة الامتحان الذي تقدم له سعد باشا ونجح فيه اعلنت في ٩ يوليو سنة ١٨٩٧ وكان رحمه الله فى السابعة والثلاثين من عمره يومئذ

وفي ١٥ نوفبر سنة ١٨٩٧ سلمت الشهادة لسعد باشا وهي ممضاة من المسيو رمبو وزير المعارف الفرنسوية فى ذلك الحين

سعد وتقديره للاشخاص

في أثناء تربع المغفور له سعد زغلول باشا في كرسي رئاسة مجلس الوزراء خلت وظيفة النائب العمومي ببلوغ محمد ابراهيم باشا السن القانونية ، وكان المغفور له محمدسعيد باشا يقوم يومئذ بمهام وزارة الحقانية فزار الفقيد العظيم وعرض عليه أسماء حضرات المستشارين ولما فرغ من مراجعتها وبحثها التفت سعيد باشا الى سعد باشا وقال له : « عندي في وزارة الحقانية موظف قدير اسمه طاهر بك نور هو الآن مدير الادارة القضائية فارجو ان تدعوه الى مقابلتك وتحادثه مليا ثم تبت في اختيار الشخص الذي تقلده منصب النائب العمومي » فعمل سعد باشا برأيه ودعا طاهر بك نور الى مقابلته ، ولم يكن قد اجتمع به قبلا ، فلما مثل بين يديه قال له : « لقد خلا منصب النائب العمومي ونحن نريد تعيين موظف كفء في هذه الوظيفة وأنت بحكم وظيفتك تعرف أسماء المستشارين الذين يصلحون لهذا المنصب مع مؤهلات كل منهم لتقلده والنهوض باعبائه » فاخذطاهر بك يسرد أسماء المستشارين الذين يعتقد أن فيهم من الكفاية ما يستطيعون به تحمل تبعاته ويردف اسم كل واحد من حضراتهم بتعداد مواهبه ومؤهلاته ولما فرغ من بسط محتويات جعبته في الموضوع الذي نحن بصدده استطرد سعد باشا في حديثه معه الى الكلام عن بعض اعمال

وزارته وسأله ان يبدي له رأيه في بعض منها بكل صراحة فاجابه الى طلبه من دون اقل مواربة ولما انتهى من حديثه صرفه سعد باشا شاكراً فما كاد يغادر مكتبه حتى تناول رحمه الله التلفون وقال لدولة محمد سعيد باشا : « ارجو ان تعد مشروع مرسوم بتعيين طاهر بك نور نائباً عموميا » وهكذا تم تعيين طاهر باشا نور في منصب النائب العمومي

سعد وحجته القانونية

لما احيل سلامه بك ميخائيل عضو الوفد المصري الى مجلس تأديب لمحاكمته على الاشتغال في الشؤون السياسية مع انه من موظفي الحكومة المصرية طلب سعد باشا (وكان يومئذ ما يزال يلقب بمعالي) من الاستاذ مرقص حنا بك (والان باشا) نقيب المحامين ان يستشهد في دفاعه عنه بالنظرية القانونية الفلانية

وفي مساء اليوم التالي كان سعد باشا جالسا في مكتبه بسلاملك بيت الامة مع جماعة من صحبه واعوانه حين دخل عليه مرقص باشا يقول : « أني لم اوفق يا معالي الباشا الى العثور على النظرية الفلانية التي خاطبتموني امس في شأنها »

فالتفت سعد باشا الى مصطفى بك (واليوم باشا) النحاس وكان واقفا على مقربة منه وقال له : « اذهب يا مصطفى الى المكتبة (١) واجلب لي الكتاب الفلاني من الدولاب الفلاني » فقصد مصطفى باشا الى المكتبة ثم عاد بعد لحظة يحمل كتاباً

---

(١) والذين زاروا بيت يعلمون ان المكتبة ملاصقة لمكتب الفقيد العظيم

ضحكاً فقال له سعد باشا : « افتحه في فصل كذا » ففتحه مصطفى باشا في الفصل الذي اشار عليه به فقال له : « والآن اقرأ بصوت عال ما جاء فيه » فقرأ مصطفى باشا فاذا بالنظرية القانونية التي كان سعد باشا قد خاطب مرقص حنا باشا في موضوعها مثبتة في ذلك الفصل من الكتاب بالحرف الواحد كما اوردها

سعد وقوة ذاكرته

في الايام الاخيرة من شهر يناير سنة ١٩٢٦ زار بيت الامة الاستاذ حسين والي من كبار المحامين في الاسكندرية ومعه فريق من زملائه فيها ، وكان سعد باشا ساعة قدومهم في خارج بيت الامة في رياضته العادية ، وعند عودته استقبله هؤلاء المحامون في الدرج المؤدي الى مكتبه ، وتقدم الاستاذ حسين والي فصافح دولته وقدم اليه اخوانه المحامين فصافحهم دولة الرئيس ثم دقق النظر في الاستاذ والي وسأله عن اسمه ثانيا فاجابه ، ففكر الرئيس لحظة ثم اشار اليه بيده وهو يقول :

« إتذكر انك ترافعت امامي . . . في اي سنة ؟ في سنة ١٩٠٤ . . . واعجبتني مرافعتك كثيراً . . . ولا أتذكر هل هنأتك أو لا . . . »

ثم شرع دولة الرئيس الجليل يسرد القضية وظروفها ووجهة اعجابه بالاستاذ حسين والي المحامي كأنه يقص شيئاً من حوادث الامس . . . !

كل ذلك ودولته واقف على رأس السلم حيث استقبلوه ...

آخر صورة للفقيد العظيم

سعد وحدة فطنته

كان النائب المحترم بشرى بك حنا جالساً يوماً في حضرة الفقيد العظيم حين دخل عليه معالي (واليوم دولة) محمد محمود باشا فشغل رحمه الله بالحديث معه فتبادر الى ذهن بشرى بك ان دولته اعرض عنه استخفافاً به امام محمد محمود باشا فانصرف من بيت الامة في ذلك اليوم وقد عول على الا تطأ قدماه عتبته مرة اخرى وفعلا مر الاسبوع تلو الاسبوع بدون ان يعود الى زيارة الرئيس كجاري عادته فلم يخف الامر على معالي فتح الله بركات باشا فسأله عن الباعث له على احجامه عن زيارة دولته فقص عليه ما كان من معاملة الرئيس له وانه قرر عدم زيارة بيت الامة في المستقبل مع احتفاظه بمبدئه السعدي فتوجه معاليه في الحال الى بيت الامة وابلغ الفقيد العظيم ان بشرى بك عاتب عليه للسبب الذي بسطناه آنفا فاطرق رحمه الله لحظة ثم قال « ادعه الى الغداء عندي وادع معه محمد محمود باشا » فخاطب فتح الله باشا بشرى بك بالتلفون وقال له « ان الباشا يدعوك الى الغداء عنده » فقال بشرى بك « اني مرتبط اليوم بموعد آخر » فقال له فتح الله باشا « ان غداء الباشا موعده غداً لا اليوم » فقبل بشرى بك الدعوة وفي ظهر اليوم التالي قصد الى بيت الامة فالفى دولة محمد محمود باشا في حضرة الرئيس فلما رآه رحمه الله داخلا عليه نهض له هاشاً باشاً واقبل عليه طول مدة الغداء يتبادل واياه النوادر والحكايات المستملحة وقبل ان ينهضوا عن المائدة

التفت طيب الله ثراه الى محمد محمود باشا واعرب له بعبارات رقيقة عما لبشرى بك من المنزلة الرفيعة في قلبه

سعد ولباقته

في خلال سنة ١٩٢١ كتب بعض خصوم الوفد في بعض صحفنا اليومية يقولون ان المظاهرات التي تقام لسعد زغلول باشا ليست سوى مظاهر مفتعلة وان جميع اصوات الهتاف التي تكاد تبلغ الجوزاء لا تحركها الا (الريالات)

وفي يوم من الايام قصد احد صحفيينا المعروفين الى بيت الامة ومعه نجله ليقدمه لدولة الرئيس فلما دخلا عليه قال لدولته لقد جئت لاقدم لكم نجلي الذي كان يهتف امس باسمكم في حفلة شاي اقامها لجمهور من زملائه

فالتفت سعد باشا الى الشاب وقال له : « وكم دفع لك سعد باشا كي تهتف باسمه » فقال الشاب على الفور «ولا مليم يا افندم»

فقال رحمه الله عندئذ للصحفي المشار اليه آنفاً « اذا كان ابنك يسلك هذا المسلك ويقول هذا الكلام فكيف ترضى ان تنشر في جريدتك كتابات يقول فيها خصومي عني انني ادفع للهاتفين اجور الهتاف باسمي ؟ » ومن ذلك اليوم لم يعد الصحفي المذكور يرضى بنشر كلمة واحدة على صفحات الجريدة في هذا الموضوع

سعد وشدة صراحته

ما كاد الوفد المصري يذيع في الانتخابات الاخيرة قائمة المرشحين الذين يؤيدهم ويعضدهم وما كاد . . . . بك . . . . يرى ان تلك القائمة جاءت خلواً من اسمه حتى زار بيت الامة وتشرف بمقابلة سعد باشا فكان اول ما قاله لدولته عند دخوله عليه في غرفته الخاصة «لماذا لم ترشحوني في هذه الانتخابات؟» فنظر اليه سعد باشا شذراً وقال له: «لانني لم افكر فيك ولم اشأ ان افكر فيك» فانصرف . . . . بك من حضرة الرئيس وتقدم الى الانتخابات من تلقاء نفسه على مبادىء الوفد المصري فاصدر الوفد بلاغاً قال فيه انه لم تعد له اقل صلة به وان الوفد لا يؤيد ترشيحه على الاطلاق

سعد وقوة وطنيته

بينما كان النحاس باشا والاستاذ مكرم وسينوت بك حنا جالسين ذات ليلة على شرفة الدار التي كان سعد باشا يقطنها في سيشل يتحدثون عن التعب الذي الم بدولته من يومين اقبل عليهم رحمه الله وهو يلوح بيديه بدون ان يقوى على الكلام فنهضوا اليه مسرعين قائلين « مالك يا باشا ؟ ... مالك » فاشار الى لسانه كمن يريد ان يفهمهم انه معقود ثم اشار اليهم بان يجلسوه على كرسي طويل (شيزلونج) فاجلسوه عليه فاخذ يتنفس بشدة وبعدما استراح قليلا ساعدوه على العودة الى غرفته وجلسوا

ملتفين حول فراشـه فلم يلبث ان نام نوماً هادئاً فظلوا مقيمين في حجرته ليكونوا رهن اشارته وعلى استعداد لتلبية اوامره وفي نحو الساعة الخامسة صباحاً فتح رحمه الله عينيه فابصرهم جالسين على مقربة منه فقال لهم : «ما تخافوش ... ما تخافوش» وسكت قليلا ولما استرد قواه استأنف كلامه قائلا : «ان الحياة لا تستحق ان يحزن عليها المرء كثيراً .. ثم ما الفرق بين الموت هنا والموت هناك ... لقد كنت اتمنى ان تدركني الوفاة في المنفى فتذكى نار الحماسة والوطنيـة في نفوس المصريين اذ اكون بموتي هنا قد ضربت لهم مثلاً في كيفية بذل المهج والارواح في سبيل الوطنية والنهضة القومية »

شعر ونظائر

مزار الاكراد

لما كان الفقيد العظيم مقيماً في بساتين بركات قبيل انتقاله الى جوار ربه زاره يوماً عبد العزيز رضوان بك عضو مجلس الشيوخ ومعه نجله الوحيد وهو في نحو العاشرة من عمره فلما أقبل الفتى على دولته لثم يده فقبله رحمه الله في جبينه وسأله عن اسمه فأجاب «محمد عبدالعزيز رضوان الكردي» فابتسم سعد وقال «ومن أين أتى اسم الكردي هذا ؟» فقال عبد العزيز رضوان بك «بقيت يا دولة الباشا مدة طويلة بدون ولد وفي سنة من السنوات قصدت الى دمشق الشام وفي ذات يوم زرت مزاراً للامراء الاكراد وفيما أنا أجول فيه خطر لي أن أسأل المولى الكريم أن يمن عليّ بولد وعاهدته تعالى اذا أجابني الى سؤالي أن اسمي ابني الكردي نسبة الى السادة الاكراد ثم لم ألبث أن رجعت الى مصر وبعد مدة غير طويلة رزقت ولدي هذا فأسميته الكردي ومن ذلك الحين لم ارزق غيره» .

فضحك سعد باشا وقال «ولماذا لم تكرر الزيارة لمزار الاكراد ؟»

لحية الدكتور

كان المغفور له سعد باشا في مقدمة المدعوين الذين دعاهم سعادة أمير الشعراء أحمد شوقي بك الى حفلة الشاي التي أقامها في داره بالجيزة اكراماً لشاعر الهند وفيلسوفها الكبير الدكتور تاغور ولاحظ الحاضرون في تلك الحفلة ان لحية الدكتور محجوب ثابت كانت يومئذ أقصر من المعتاد والظاهر أنها كانت مقصوصة « طازة » بمناسبة تلك الحفلة

ولما دخل الدكتور محجوب على دولة سعد باشا ليصافحه لاول مرة بعد تلك « الغيبة » الطويلة التفت أحدهم الى الدكتور محجوب وقال له :

— لقد قصرت لحيتك يا دكتور

فقال سعد باشا ضاحكاً :

— لقد استعاض بها المذكور

وكان رحمه الله يعني « بالمذكور » الدكتور تاغور ولحية تاغور فيها « البركة » كما يرى من صورته

أمنيته

زار بيت الامة في أثناء الانتخابات النيابية الأولى وفد من الاقاليم ليعلن ثقته بدولة الرئيس الجليل ، وخطب أحد أعضاء الوفد بين يدي دولته فكان بين عباراته العبارة الآتية :

— لو نفيت الآن يا معالي الرئيس الى أقصى المعمورة لسعت اليك قلوبنا لتعلن ثقتها بك

فضحك رحمه الله وقال :

— بس وعلى ايه ؟

ميزان الصحة

يذكر القراء ان دولة الرئيس الجليل كان معتكفاً حينما استقالت الوزارة العدلية الماضية فلما الفت الوزارة الزوتية وتقرر أن تتقدم الى مجلس النواب أصر طيب الله ثراه على أن يرأس جلسة المجلس في ذلك اليوم بنفسه

وعلى اثر ارفضاض جلسة المجلس عاد الرئيس الى بيت الامة والتقى عند بابه الخارجي بمندوب احدى جرائدنا اليومية فقال له هذا بعد التحية :

— ربنا يديك العافية يادولة الباشا ... يظهر ان اللورد لويد كان مصيباً عندما قال أن الازمات تنعش سعد باشا وترد اليه صحته ونشاطه

فابتسم سعد باشا وقال :

— ربنا يمد في حياته

التماس حافظ

ربما كانت النادرة التالية خير ما قيل للدلالة على قوة حجة سعد باشا وبلاغة عبارته فان شاعر النيل حافظ بك ابراهيم كان مرة بين ضيوف الرئيس الجليل في مسجد وصيف وقد عرف عنه انه مولع جداً بالكمثرى ولا يميل كثيراً الى التفاح

وفي ذات يوم كانت مائدة سعد غاصة بالزائرين والظاهر ان جلهم كان مولعاً بالكمثرى مثل حافظ بك فلما انتهوا من الطعام وجيء اليهم بالفاكهة أقبلوا كلهم على اطباق الكمثرى يلتهمونها

التهاماً نابذين أطباق التفاح فاسقط في يد حافظ بك وأخيراً لما بلغ منه اليأس أشده التفت الى الفقيد العظيم وقال :

— ماتخطب لهم ياباشا في مزايا التفاح

تمثال نهضة مصر

حدث لما زار الفقيد العظيم تمثال نهضة مصر انه بينما كان دولته يتفرج على القاعدة دنا منه أحد المصورين ورجاه أن يسمح له ولزملائه بتصويره واقفاً لوحده أمام التمثال حتى يقال « زعيم نهضة مصر واقفاً بجانب تمثال نهضة مصر » فأجابه دولته الى رجائه وسار الى حيث التمثال ووقف امامه كمن يتفرج عليه . فقال له المصور : « نحن نرجو دولتكم ان تمطوا لنا وجهكم حتى يظهر مع التمثال » فقال سعد باشا « ولكنني لا أظن انه يليق ان أعطي ظهري لنهضة مصر » وبعد ما استشار سعد باشا الواقفين بجانبه رضي أن يذعن لهذا الحكم الفني

وكان المغفور له حسين رشدي باشا يصحب سعد باشا في هذه الزيارة وبينما هما يسيران جنباً الى جنب وصلا أمام باب ضيق لا يسع مرور أكثر من شخص واحد فقال الرئيس الجليل لرشدي باشا « تفضل ياباشا » فتنحى رشدي باشا وقال « لا ما يصحش ، تفضل انت يا باشا » فدفعه سعد باشا أمامه وقال له وهو يبتسم « انت أكبر مني سناً فادخل أولاً » فلم ير رشدى باشا عندئذ مندوحة عن المرور قبل الرئيس

سعد بين الشجاعة والشفقة

حدثنا معالي فتح الله بركات باشا فقال : —

« في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ اعتقلت السلطة العسكرية صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري في داره ببيت الامة وارسلته الى السويس بسيارة اجتازت المسافة بين المدينتين في نحو ثماني ساعات لم يشعر دولته في اثنائها بتعب ما رغم شيخوخته وانحراف صحته كأن العناية الربانية نفخت فيه روحا جديدة ساعدته على تحمل ما تكبده في تلك الرحلة الطويلة من تعب ومشقة مما كان لا يقوى على تحمله ساعة واحدة في الاحوال العادية وخصوصا ان الفصل كان فصل شتاء ومطر

« ولم يمض علينا في عدن زمن طويل حتى اصيب رفيقنا الاستاذ مكرم عبيد بمرض شديد اقتضى نقله الى المستشفى فأصر المرحوم عاطف بركات باشا ومصطفى النحاس باشا على ان يكونا بصحبته وتطوعا للذهاب معه للسهر عليه وخدمته وأخيراً اتفقنا معهما على ان يتناوبا العمل في العناية به فيقضي عاطف باشا معه أربعاً وعشرين ساعة ثم يعود الينا ويحل مصطفى باشا محله اربعاً وعشرين ساعة أخرى

«وكنت مصاباً في تلك الاثناء برمد في احدى عيني فكان

سعد باشا يعودني ليستفسر عن صحتي فلا تكاد عينه تقع على عيني، حتى يرثي لحالي وحال الاستاذ مكرم فيجهش بالبكاء وتنهمر الدموع من عينيه الصافيتين على خديه وتتصاعد الزفرة من قلبه تلو الزفرة فاتأثر لتأثره اكثر من تأثري لحالي وحال زميلي... وكنت اعجب لمسلك سعد باشا وأقول في نفسي هل يجوز له ان يبكي ، ياترى ، لمرض رفيق ، وهو الذي ينبغي عليه ان يكون قدوة لشعب بأسره في التضحية والبذل والمثابرة والشجاعة والاقدام . . .

« في تلك الساعة تذكرت انه كثيراً ما عرفت اناساً اتصفوا بالشجاعة مع أنهم لم يعملوا عملا تجلت فيه الشجاعة ، وانه كثيراً ما التقيت باناس اشتهروا بالفصاحة والبلاغة مع ان كتاباتهم لم تكن من بنات أفكارهم ولا من ثمرات اقلامهم ، وانه كثيراً ما صادفت اناساً عرفوا بالتقوى والفضل مع انهم ليسوا من التقوى والفضل بشيء — تذكرت ذلك كله ثم تساءلت قائلا هل سعد باشا من أولئك الناس ، يا ترى ، وهل ماعهدناه فيه وما كنا نظنه فيه يرجع الى التفاف الامة حوله وانضوائها تحت لوائه لا الى أخلاقه وصفاته الشخصية ... جزعت لهذه الفكرة واضطربت اعصابي ، ولم يعد يهدأ لي بال ، غير ان ما انتابني من جزع وفزع لم يدم طويلا فانه بينما كنا جالسين ذات يوم نتناول طعام الافطار دخل علينا وكيل حاكم عدن ، وهو انجليزي ، وحيانا ، وجلس معنا ، فدعوناه الى الأكل فاعتذر شاكراً ، ثم التفت الى سعد باشا وقال له انه تلقى أمراً

بوجوب ترحيله الى جزائر سيشل وانه يجب على دولته ان يكون في البارجة الحربيـة التي اعدت خصيصاً لنقله الى تلك الجزائر في خلال ساعةونصف ساعة ، فصعقنا لهذا النبأ، وكيف لا نصعق له ونحن نرى اناساً يفصلون عنا ابانا وزعيمنا وأبا الامة وزعيمها ، فطلبنا الى وكيل الحاكم ان يسمح لنا بالسفر مع سعد باشا فاجابنا ان الامر الذي بيده صريح وهولا يذكر غير سعد باشا فبكينا بكاء الاطفال واخذنا تندب سوء ما لنا لافتراقنا عن الوالد الزعيم ، ثم قلنا لوكيل الحاكم اذا كنتم لا تريدون ان تسمحوا لنا بصحبة سعد باشا فلا اقل من ان تسمحوا لأحدنا بصحبته رأفة بصحته وشفقة على شيخوخته. فقال اني سأبلغ امنيتكم هذه الى المراجع العليا ولكن لا بد الآن لسعد باشا من ان يتوجه وحده الى البارجة التي اختيرت لنقله الى سيشل ، وكان كل من الزملاء يتسابق عندئذ الى ان يكون في ركاب سعد باشا مع ان السائد على افكارنا كان انه ذاهب الى الابد وان من يبقى في عدن قد يعود الى الوطن غير ان التسابق والتزاحم الى مرافقة سعد كانا عظيمين رغماً من هذا الاعتقاد وكان كل منا يشعر بان السعيد هو من يفوز بهذه الامنية الثمينة ، ولما الفينا وكيل الحاكم مصمماً على رأيه شرعنا في كتابة كتاب شديد اللهجة وجهناه الى السلطة البريطانية محتجين فيه بقوة على المعاملة التي عومل بها رئيسنا وزعيمنا وطلبنا في ختامه ان يلحقونا به ويرسلونا في اثره او أن يبقوه معنا

« ولما فرغنا من كتابة الاحتجاج اتصل خبره بسعد باشا فاستحلفنا بكل عزيز علينا ان لا نرسله قائلا « انني اعلم اني لن ارجع الى مصر وان قبري لن يكون في مصر وقد كاشفتكم برأيي في هذا الصدد من زمان طويل ، فانه لا يعقل ان اعود الى مصر الا في حال من حالتين لا ثالث لهما فاما ان ترجع انجلترا عن خطتها وتعترف لمصر باستقلالها وعندئذ يعود زعيم الاستقلال الى بلاده ويقضي البقية الباقية من حياته بين قومه أو يعدل زعيم الاستقلال عن خطته ويقلع عن سياسته فيرجع الى بلاده خاضعاً للسلطة المحتلة وحيث اني لا أنوي ان أسلك هذا المسلك وحيث انه لا يبدو لنا ان انكلترا تنوي الاعتراف باستقلالنا فاني ساقضي بقيـة حياتي خارج بلادي ، فلماذا تصرون على ارسال هـذا الاحتجاج الذي لا يغنينا فتيلا وخصوصا انه قد يزيد في بغضهم لكم فيعوقون رجوعكم الى قومكم لخدمة بلادكم فدعوني اذهب الى سيشل وارجعوا انتم الى مصر وابلغوا أبناءها الاعزاء ان زغلولا يحييهم ويوصيهم بالاتحاد وتوحيد الجهود الى ما فيه خير الوطن ... قولوا لهم .. ابلغوهم ...

« وهكذا استمر سعد باشا يسدي الينا النصح والارشاد ببلاغته المعهودة وحكمته المعروفة وثبات تام الى ان ازف موعد الرحيل فرافقناه الى الميناء ونحن نبكي ونولول كالأطفال اما هو فكان رابط الجأش، ساكن الجنان، ثابت الخطى، جهوري الصوت ، لم يذرف دمعة واحدة حتى آخر لحظة ...

« وعندئذ عجبت كيف ان هذا الرجل الذي كان يبكي لأقل

ألم يصاب به احد صحبه يقوى في مثل هذا الموقف على التغلب على عواطفه وشعوره ويكفكف دموعنا ويهدىء من روعنا

« وعندئذ عرفت ان الرحمة والشفقة في قلب الزعيم شيء وان روح البذل والتضحية في سبيل الوطن شيء آخر وانه رجل لا يهاب المكاره مهما عظمت ولا يحفل بالاخطار مهما كبرت ما دام يعتقد انه سائر في طريق الحق يعمل لاجل الحق، وفي سبيل الحق

ولما وطئت قدما سعد باشا الزورق الذي اقله الى البارجة الحربية التفت الينا وأنشد ما أنشده الشاعر العربي :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

« وبعد تسعة ايام سمحت لنا السلطة باللحاق بسعد باشا فرقصنا للنبأ من شدة سرورنا وفرحنا ولم ننم تلك الليلة البتة من عظم ابتهاجنا واغتباطنا وكان كل منا يعتقد ان تلك الليلة أسعد ليالي حياته لأنه سيجتمع عما قريب بالزعيم وكنا نشعر ان العودة الى مصر من دونه مصيبة عظيمة كنا ندعو الله ان يقينا منها وان لا يعيدنا الى مصر الا بركاب سعد باشا اذ كنا نحس ان في اللحاق به والعيش بالقرب منه السعادة وان في الرجوع الى الوطن من غيره والعيش بعيداً عنه الشقاء فانقذنا الله من الشقاء بفضله ومنه تعالى »

***

وقد كنا جالسين مرة مع أحد الوزراء السابقين فدار الحديث على حنو قلب سعد باشا ورقة عواطفه على الرغم مما كان

يتجلى للناس من قوة شكيمته وشدة بأسه فقص عليه معاليه ان الفقيد العظيم روى له مرة أنه لما تولى تأليف الوزارة الشعبية الاولى في سنة ١٩٢٤ ذهب يوماً لزيارة اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني في مصر اذ ذاك فاستقبله فخامته في مكتبه بداره مرحباً بزيارته مبالغاً في الاحتفاء به . قال سعد : « وكان باب المكتب ونافذته مفتوحين عند دخولي اليه فتولد عن فتحهما تيار هوائي شديد لم يكن لي قبل بتحمله فلم يخف ذلك على اللورد وما لبث ان نهض فجأة وسار نحو النافذة أولاً ثم نحو الباب وأغلقهما بنفسه، ولم يكتف بما صنعه بل عاد الي مسرعاً ورجا مني أن أنهض قليلاً ففعلت وأنا لا أدري مرامه فلم يكن منه الا أن حمل بيديه الكرسي الذي كنت جالساً عليه ونقله الى مكان منعزل في جانب من جوانب القاعة لا ينفذ اليه الهواء، فكان لمسلكه أعظم وقع في نفسي حتى انني كدت لا أصدق ما تراه عيناي اذ هل كان يخطر لاحد ان ذلك الذي نفاني الى سيشل غير مبال بمرضي يهتم الآن بصحتي كل هذا الاهتمام ويتولى بنفسه نقل كرسي من مكان الي آخر لئلا أصاب بلفحة برد قد تؤثر في حالتي . . . انه سلك مسلكه الاول عملاً بواجبه كمندوب سام وسلك المسلك الثاني كرجل مدفوعاً بدافع شعوره الانساني وأكبرت روح الرجل وشهامته ولعنت المصالح والظروف والاهواء السياسية التي تقضي على الرجال أحياناً بأن يظهروا بعكس ما تنطوي عليه حقيقة نفوسهم البشرية » وهنا لاحظ الحاضرون ان دمعتين كبيرتين تتساقطان من عيني سعد الصافيتين

وكنا موجودين في أحد أيام شهر ابريل سنة ١٩٢٧ في مكتب الفقيد العظيم ببيت الامة وكان بين الحاضرين المغفور له رشدي باشا ومعالي احمد خشبه باشا وكان رشدي باشا يزور بيت الامة في ذلك اليوم لاول مرة بعد شفائه من مرض ألزمه الفراش بضعة اسابيع فأخبرنا انه لما قابل سعد باشا في حجرته بالطابق العلوي قبل اجتماعه بنا بنصف ساعة قال رحمه الله : « لقد أخبروني يا رشدي باشا انك نهضت من فراشك وأنت مريض وخاطبت بيت الامة بالتلفون سائلاً عن صحتي فانا أشكرك على حسن عنايتك ورقيق شعورك » فرد عليه رشدي باشا بقوله : « ثق يا سعد باشا انه لو كنت أنت في الاسكندرية وكنت أنا في القاهرة وبلغني انك مريض ولم يكن بين المدينتين مواصلات حديدية ولا غيرها لكنت أذهب الى الاسكندرية مشياً لاستفسر عن صحتك واطمئن على حالك لان الصداقة التي بيننا صداقة أبدية مهما اعتراها في بعض الاحيان من فتور »

قال لنا رشدي باشا : « وهنا نظرت الى سعد باشا فرأيت عينيه تترقرقان بالدموع فدنوت منه لأمازحه وقلت له باسما « ولكن لا تنس انك تلميذي » وكان دولته يشير بذلك الى الدروس القانونية التي أخذها سعد باشا عنه لما بدأ يتعلم الحقوق باللغة الفرنسية فافتر الفقيد العظيم باسماً وسري عنه

***

ولما انتقل المغفور له عبد الخالق ثروت باشا الى جوار ربه في الصيف الماضي اهتممنا بمعرفة مادار بينه وبين سعد باشا لما

زاره لأول مرة في بيت الامة في بدء عهد الائتلاف بعد الخلاف الكبير الذي قام بينهما فلم يكن لنا مرجع نستقي منه هذه المعلومات خيراً من معالي فتح الله بركات باشا الذي كان في مقدمة من سعى للائتلاف وعمل له ، فسألناه عما كان من أمر سعد باشا لما دخل عليه ثروت باشا في تلك المقابلة الاولى فأجابنا : « لم ينبس ببنت شفة لأن عبراته كانت أسبق من لسانه فخنقت عباراته فنهض وعانق ثروت باشا طويلاً »

وقد حدث مرتين ان تغلبت الدموع على المغفور له سعد باشا أمام جموع حافلة من الناس ، أما المرة الاولى فكانت يوم الاحتفال بتأبين شقيقه المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا فانه لما نهض ليشكر المعزين والشعراء والخطباء على مؤاساتهم حبست الدموع كلمات الشكر التي كان يريد ارتجالها في ذلك المقام فاكتفى بأن قال : « سادتي . عسى أن يكون في دموعي هذه أعظم شكر لحضراتكم » وصمت فكان بليغاً في صمته كما كان بليغاً في استرساله أما المرة الثانية فكانت في اثناء الحركة الوطنية حين مرت جنازة احدى ضحايا الحرية أمام بيت الامة نخف رحمه الله الى السير في طليعة المشيعين وقد بللت دموعه وجهه الوضاح .

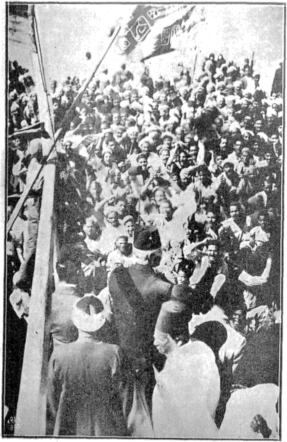

سعد في وسط الجماهير

سعد في آخر أيامه

[في الفصل التالي وصف شامل لما جرى في مسجد وصيف عند اشتداد وطأة المرض على الفقيد العظيم قبيل وفاته وعند نقله من مصيفه الى العاصمة وقد استقى المؤلف هذه المعلومات من النائب المحترم الاستاذ محمد صبري أبو علم الذي كان له عند سعد مكانة معروفة . ويلي ذلك وصف للمؤلف لما جرى في بيت الامة ساعة اعلان وفاة الزعيم الاكبر وقد كان الصحفي الوحيد الموجود في دار سعد في تلك اللحظة]

آخر يوم للرئيس بمسجد وصيف

في منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٧ كان ضيوف الرئيس جالسين الى المائدة بغرفة الطعام بمسجد وصيف ، وهم حضرات بهي الدين بك بركات وفخري بك عبد النور وفؤاد بك كمال والاستاذ محمد صبري ابو علم وكان قد حضر من القاهرة من نصف ساعة الدكتور عبد العزيز بك اسماعيل والدكتور سليم صابونجي بك واشترك معهما الدكتور احمد شفيق والدكتور حامد محمود في فحص حالة دولة الرئيس وكان الضيوف من الصباح متفائلين خيراً فالحرارة في هبوط والرئيس منشرح عن الايام السابقة حتى ان الاستاذ عباس محمود العقاد استأذن في العودة الى القاهرة

تقرير وجوب العودة الى العاصمة

وصعد الى الطابق العلوي بهي الدين بك وفؤاد بك كمال وكان الضيوف ما يزالون جلوساً حول المائدة ثم نزل بهي الدين بك وأبلغهم في شيء من الاضطراب أن الاطباء بالرغم من ملاحظتهم اطراد التحسن في صحة الرئيس وعدم وجود ما يدعو

للقلق فانهم يرون ضرورة عودة دولته الى القاهرة ، فاضطربوا لهذه المفاجأة ، وحاولوا أن يعارضوا في تنفيذ هذا القرار وتمثلوا مقدار ما يستولى على نفوس الشعب من فزع حين يعلم هذه العودة الفجائية ، واخيراً علموا أن عبد العزيز بك وصابونجي بك قد عادا الى القاهرة بعد أن أعلنا أنهما مصممان على رأيهما فضعفت معارضتهم ، واضعفها أكثر ما علموا من ان أن دولة الرئيس أذعن لارادة أطبائه فقرر العودة فوراً بالرغم مما كان يشعر به من تحسن الحالة وعدم وضوح ما يجعل السفر ضرورياً

ولما رأوا أنفسهم إزاء الامر الواقع أخذوا يتداولون في ترتيب السفر ، وكيفية ابلاغه الى الامة ، وكانت الباخرة « محاسن » قد وصلت من يومين ورست أمام مسجد وصيف لتكون تحت طلب دولة الرئيس فأرسلوا في طلب مهندسها ورئيسها وعلموا منها أن العودة للقاهرة تستغرق نحو احدى عشرة ساعة وعلموا أن المركب لو تحركت الساعة الخامسة — كما كان دولة الرئيس يريد — فستضطر الى المبيت بالنيل فرأوا أن الاوفق أن يبكر في صباح الجمعة وعلم دولة الرئيس بذلك فوافق عليه

ثم أبلغوا الخبر الى معالى وزير الاشغال ليصدر الاوامر بفتح الكباري ورجوا منه أن يتكتم الخبر حتى لا يتسرب الى الجمهور مبالغة في المحافظة على راحة دولة الرئيس أثناء السفر

الرئيس ومضايقته من مرضه

وذهب كل منهم الى اعداد حقائب السفر وبينما كان الاستاذ صبري أبو علم مشتغلا بذلك اذ علم ان الرئيس أرسل يدعوه اليه فنزل من دار الضيافة فاذا بالمدموزيل فريدا توصيه بألا يدع لدولته فرصة للاكثار من الكلام وان يتولى ذلك عنه حتى لا تعود الحرارة فترتفع . فصعد لدولته ولم يكن قد حظي برؤيته في اليوم السابق فوجده جالساً في سريره والرباط يحيط برأسه فأخذ يسأله عن اخوانه فحدثه عنهم طويلا ثم أخذ دولته يتكلم عن ذلك المرض الذي جاء على غير انتظار فنغص عليه راحته وضايقه . وقال : « اني لأعجب لهذه « الاكزيما »(١) وسرعة تنقلها كل يوم من جهة لاخرى . لقد جاءت في وقت بدأت اشعر فيه بطعم الحياة من جديد . فصحتي كانت قد بدأت تتحسن . وكنت فرحاً بمن يحيطون بي . بين قادم وزائر ومقيم ومسافر على أن يعود بعد قليل . ودار الضيافة عامرة بهم ونفسي مرتاحة الى أحاديثهم ولكن جاء هذا المرض فضايقني . . . . وماذا تقول البلد عندما تراني في هذه السن أعود للقاهرة فجأة ؟ ! » فحاول الاستاذ ابو علم أن يسلي دولته ويسري عنه داعياً الله ان يعود ثانية الى مسجد وصيف في هذا الصيف . وأخبر دولته انهم قد أعدوا بلاغاً ضمنوه ما لاحظه

---

(١) كان دولة الرئيس يعتقد انه مصاب بالاكزيما من يوم الاحد السابق لوفاته

الاطباء من التحسن في صحته مما دعاه الى تقرير العودة للقاهرة . .
وبينما الاستاذ ابو علم بحضرته إذ طلب مرآة من «فريدا» لانه أحس بالمرض قد وصل الى انفه ... ثم خرج الاستاذ ابو علم . . . . . فاستدعاه ثانية وطلب اليه البقاء فبقى . . . ثم استأذن من دولته وهو في أشد حالات التأثر والانفعال

نشاط سعد حتى يومه الاخير

وبعد بضع دقائق دعا دولة الرئيس جميع ضيوفه الى حجرته فلبوا الدعوة وأخذوا يتحدثون مع دولته حديثاً كله فكاهة وترويح عن النفس . . . ولبثوا معه نحو ربع ساعة ثم خرجوا مستأذنين . وسافر محمد بك بركات الى بلبيس على ان يعود اليهم في الصباح

ثم شرعوا في الاشراف على تمهيد الطريق بين العزبة والشاطىء . . . وبعد العشاء خرج الاستاذ ابو علم مع النقراشي بك وبهي الدين بك يرتادون الطريق الذي ستجتازه عربة الرئيس في الصباح ثم عادوا الى دار الضيافة وقد أعدوا البلاغ الذي سيرسل الى الصحف التي تصدر بعد ظهر الجمعة عن حالة دولته وضمنوه إشارة إلى ان الرئيس قد قرر العودة حتى اذا نشر الخبر يوم الجمعة وعلم الجمهور بعد ذلك أن دولته قد عاد مساء الجمعة لا يفاجأ بهذه العودة

ثم ذهبوا الى مخادعهم وفي منتصف الساعة الرابعة صباحاً كان محمد بك بركات قد عاد من بلبيس فأيقظهم فنهضوا وارسلوا

تمثال سعد باشا

حقائبهم الى الباخرة . ومكثوا ينتظرون نزول دولة الرئيس وكان من المقرر أن ينزل دولته في منتصف الساعة الخامسة . وأخلوا الطريق الى الباخرة من العابرين . ولما حانت ساعة القيام من مسجد وصيف شعروا بحركة فعلموا ان دولة الرئيس نازل فجروا لاستقباله . وركب دولته عربة عمدة مسجد وصيف والى يساره الدكتور شفيق وسارت العربة حتى الشاطىء وتقدمها صحب سعد في سكون مهيب صامتين لا يتكلمون الا همساً . واستحوذ عليهم شعور مبهم : خليط من القلق والاضطراب والحزن والوجوم . ولما وصل الرئيس الى الشاطىء حاول من حوله أن يحملوه على « كرسي » اعد لذلك فأبى وقال : « دعوني » وسار معتمداً على عصاه حتى وصل الى الغرفة التي اعدت لدولته بالباخرة . وعلى أثر مجيء دولته جاءت حضرة صاحبة العصمة حرمه المصون ومن معها

الوداع الاخير لمسجد وصيف

وقبل ان تتحرك الباخرة نادوا مأمون افندي الريدي سكرتير دولة الرئيس وزودوه ببعض التعليمات لانه كان من المقرر أن يبقى بمسجد وصيف الى الظهر حتى لا يفهم الناس من غيابه ان الرئيس غادر مسجد وصيف . وفي الساعة السابعة كانت الباخرة تعلن بصفيرها ايذانها بالرحيل

وكان هذا آخر عهد سعد بمسجد وصيف ، بل آخر عهد مسجد وصيف بالرئيس الجليل !

اذعان الزعيم للاغلبية

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه لما أستقر قرار ثلاثة من الاطباء على نقل الرئيس من مسجد وصيف الى العاصمة وأيدتهم ام المصريين في قرارهم صعد فخرى عبد النور بك الى حجرة الفقيد المظيم ورجا منه ألا يمتثل لهذا القرار وان يصر على البقاء في مسجد وصيف

فكان جواب سعد باشا: « اني لا اشعر بما يستوجب نقلي الى العاصمة ولكن الاغلبية قررت وجوب هذا الانتقال فالنظام يقضي بان اذعن لقرار الاغلبية متكلاً على الله »

سعد وخوفه من الساعة الواحدة

وفي الساعة الواحدة من ليل الاثنين في ٢٢ اغسطس. اشتدت وطأة المرض على المغفور له سعد زغلول باشا اشتداداً عظيماً فزع له الاطباء وجزعوا . . .

ولما أزفت الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي — الاثنين — التفت سعد باشا الى حرمه المصون وقال لها: « أنا خايف من الساعة الواحدة أيضاً » فقالت له: « دع عنك مثل هذه الاوهام ياسعد فانه اذا كان المرض قد اشتد عليك أمس الساعة الواحدة فهذا ليس معناه انه سيشتد عليك الساعة الواحدة من هذا الليل أيضاً » فأخذ رحمه الله ساعته ووضعها على وسادته وجعل ينظر اليها كل نصف ساعة ويسجل الوقت بصوت مرتفع قائلا:

« ثمانية ونصف . . تسعة . . تسعة ونصف . . عشرة »

ولما قربت الساعة الثانية عشرة خشيت ام المصريين اذا أزفت الساعة الواحدة واشتد المرض على سعد أن يؤثر وهمه في مرضه تأثيراً سيئاً قد يضر بصحته فتناولت ساعته خفية وأدارتها وجعلتها الثانية بدلاً من الثانية عشر

وفي الساعة الواحدة تماماً اشتد المرض على الفقيد العظيم وارتفعت الحرارة فجأة الى ٤١ فمد يده وتناول ساعته وحدق فيها قليلاً ثم مر على وجهه بكفه وقال على الأثر : « أنا لا أزال أملك حواسي . . فمن المحال أن تكون الساعة الثالثة الآن »

وكانت صفيه هانم تمسك بيدها الساعة الحقيقية فنظرت اليها فالفتها تسجل الواحـدة فأدارت وجهها لتستر ما اعتراها من اندهاش وذهول

وأدرك سعد الحقيقة

وأخذ يتمتم : « أنا رايح . أنا رايح »

فقالت له صفيه هانم : « وهل تحب ان أجيء معك ؟ »

فتطلع اليها وقد أمسك بيدها وقال : « خليك انت »

وهنا دخل عليه الطبيب بناء على طلبه

ولـكن الداء أعيا الاطباء

وفي اليوم التالي توفى سعد

. . . .

ساعة الوفاة

٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧ ! . . .

يا له من يوم مشئوم ! . . .

كانت الساعة تقرب من السابعة مساء حين توجهت الى بيت الامة للاستفسار عن حالة الزعيم الاكبر فما كدت اصل الى شارع الفلكي حتى رأيت رجال البوليس منتشرين في جميع الطرق المؤدية الى شارع سعد زغلول ليحولوا دون وصول السيارات والمركبات الى بيت الامة كي لا تقلق جلبتها سعداً في نومه وكان السائر كلما أمعن في السير واقترب من بيت الامة يشعر بسكينة ووحشة لم تعهدها تلك البقعة من العاصمة منذ ان رفع سعد علم الجهاد عالياً

وما هي الا دقائق قلائل حتى الفيت نفسي في داخل بيت الامة فاجلت طرفي في الواقفين على شرفة السلاملك فابصرت بالاستاذ الجزيري سكرتير الرئيس الامين مسنداً ظهره على احد الاعمدة التي تقوم عليها الشرفة وقد ارتسمت على وجهه علائم القنوط والحزن فتابعت سيري اليه وسألته : « هل هناك جديد في حالة الرئيس ؟ » فاجابني بصوت خافت وعبارات متقطعة : « الحالة سيئة جداً ... والباشا غائب عن الصواب منذ الصباح...

وسيعوده الاطباء مرة اخرى الساعة التاسعة وهم يقولون انه اذا لم تنزل حرارته قبل ذلك فمن الصعب أن يعيش حتى منتصف الليل .. ارجوك ان لا تخبر احداً من الحاضرين لان كل ضجة قد تضر بحالة الباشا »

ونظرت في تلك اللحظة في ساعتي فاذا بالساعة السابعة تكاد تنتصف فدخلت مكتب الرئيس وجلست على احد مقاعده بجوار عبد العزيز بك رضوان وكان في المكتب ساعتئذ حضرات اصحاب المعالي والسعادة والعزة فتح الله بركات باشا واحمد خشبه باشا ومحمود فهمي النقراشي بك وعبد الحميد البنان بك والدكتور محجوب ثابت والاستاذ صبري ابو علم ونخري عبد النور بك وغيرهم من الشيوخ والنواب. ورأيت من موظفي وزارة الداخلية محمود حسن بك وكيل الوزارة واحمد بك كامل وكيل ادارة الامن العام وكان يقوم يومئذ مقام مديرها ومحمود غزالي بك المفتش بالداخلية وكانوا كلهم صامتين واجمين يرقبون حلول الساعة التاسعة مضطربين وجلين. وكانت هناك اصوات في الخارج ترتفع من آن الى آخر بالقول « اللهم ارأف بمصر . اللهم ارأف بنا وبمصير بلادنا » فكنت تسمع صدى هذا الدعاء زفرات تتصاعد متقطعة من قلوب الحاضرين المتوجعة

وفي الساعة التاسعة اجتمع الاطباء للتشاور في حالة الرئيس الجليل وفي اثناء اجتماعهم هبط نبض دولته فجأة وكان حتى تلك الساعة يسير سيرا عادياً طبيعياً فاسرع اليه الدكتور شفيق فالفاه في دور النزع الاخير فارسل من وافى فتح الله باشا في مكتب

الرئيس حيث كنا جالسين ودعاه الى جانب سرير خاله العظيم فنهض معاليه وغادرنا ممتقعاً امتقاعاً شديداً وتبعه نجله الاكبر بهي الدين بك بركات وقد اصطبغ وجهه بصفرة الاموات ومكثنا نحن في المكتب ننتظر وقد توجسنا شراً من استدعاء فتح الله باشا الى جوار المريض ولكن ما من واحد منا تجرأ في تلك اللحظة على الاستفسار عما آلت اليه حالة سعد كأن كل واحد من الحاضرين كان يتوقع النبأ الاليم ويحاول ابعاده عن سمعه أو على الاقل يحاول ان يكون آخر من ينطق به لسانه .

وفي نحو الساعة العاشرة اسلم الفقيد العظيم روحه الطاهرة الى خالقها ولكننا لبثنا نجهل النبأ المشئوم دقائق برمتها ، وفي تمام الساعة العاشرة عاد فتح الله باشا الى مكتب الرئيس وقد ازداد امتقاع وجهه ولكنه لم ينبس ببنت شفة بل سار الى وسط القاعة ثم وقف هناك لا يتفوه بكلمة ولا يأتي حركة كأنه صعق في مكانه فتطلع اليه الحاضرون متسائلين حيارى فلم يتحرك وفي تلك اللحظة سمعنا صوت بكاء آتياً من الشرفة الخارجية فضرب فتح الله باشا ركبتيه بيديه فوجم الحاضرون وأدركوا في الحال ما كانوا يتساءلون عنه فاغرورقت العيون بالدموع وارتفعت أصوات البكاء والنحيب من كل حدب وصوب وفي أقل من لحظة تحول ذلك السكون الشامل الى مناحة وانقلب ذلك المجلس الهادىء الى مأتم .. مأتم سعد ! مأتم الوطن !.

وخشيت على فخري بك عبد النور من شدة بكائه ونحيبه نظراً لبدانة جسمه وكنت كلما أبصرت به يتقلب على مقعده وهو

ينتحب وقد صعد الدم الى وجهه أحاول عبثاً ان أهدىء من روعه . وفي وسط هـذا العويل والنحيب أقبل علينا الدكتور شفيق مسرعاً كالبرق الخاطف وصاح في الحاضرين قائلاً : « رأفة يا رجال بمحروم سعد ... خففوا من نحيبكم رأفة بصحتها وشدة حزنها ؛ .. لا تسمعوها أصوات بكائكم بل ساعدوها على تحمل مصابها بصبركم وتجـلدكم ... كونوا رجالا ولا تبكوا ... ان البكاء لا ينفع الرجال بل ضعوا ذكرى سعد نصب اعينكم ... اتخذوها مثالا لـكم فتكون خير معز للوطن في هـذه المحنة ... لا تبكوا سعداً .. ان سعداً لا يريد منكم ان تبكوا عليه بل يريد ان تقتفوا خطواته في الدفاع عن قضية البلاد » وانصرف حضرته عائداً الى الطابق العلوي ليكون في خدمة ام المصريين

وكانت شرفات بيت الامة ومداخله غاصة بجموع المحتشدين فسرى بينهم النبأ المشئوم كانه تيار كهربائي اهاج عواطفهم وشعورهم فكان بكاء وكان نحيب ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وهنا اخذ الصحفيون يقبلون تباعاً فأخبرهم الاستاذ النقراشي ان عبارة « انا انتهيت » كانت آخر ما تلفظ به الرئيس الجليل قبل غيابه عن الصواب في صباح ذلك اليوم

***

وكلف معالي فتح بركات باشا الاستاذ الجزيرى ان ينعي الفقيد العظيم الى دولة توفيق نسيم باشا رئيس الديوان العالى فخاطبه حضرته في داره بالتلفون الموضوع على مكتب الرئيس في القاعة التي كنا مجتمعين فيها فرد عليه دولته بنفسه فقال له الاستاذ

الجزيري « انا الجزيري يا افندم ... وهنا خنقته العبرات فسكت قليلاثم قال: «البقية في حياتكم يا باشا » فلم يكد الحاضرون يسمعون هذه العبارة حتى ارتفعت الصيحات المتقطعة من افئدتهم المتصدعة المكلومة وما هي الا فترة وجيزة حتى اقبل توفيق نسيم باشا مرتدياً ثوباً قاتماً وتقدم بالعزاء الى فتح الله بركات باشا والى زميله احمد خشبه باشا

وكان معالي جعفر ولي باشا يقوم يومئذ مقام وزير الداخلية فلما بلغه وهو في الاسكندرية خبر تفاقم حالة الرئيس الجليل غادرها بالقطار الذي يبرحها الساعة السابعة مساء فوصل الى العاصمة الساعة العاشرة والثلث فركب سيارته وتوجه من المحطة الى بيت الامة مباشرة ليستفسر عن صحة الزعيم الاكبر فما كاد يبلغه حتى سمع أصوات البكاء والنحيب فأدرك ان المنية أنشبت أظفارها في رمز أماني الامة وموضع ثقتها ورجائها فتقدم بدوره معزياً فتح الله باشا وانضم الى زملائه في اعداد برنامج تشييع جنازة الفقيد العظيم بعد ما خاطب معالي احمد زكي ابو السعود باشا بالتلفون في الاسكندرية وطلب منه ان ينعي الراحل الكريم الى ثروت باشا تلغرافياً وان يحضر هو الى العاصمة بقطار نصف الليل

٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ !...

يا له من يوم مشؤوم ! . . .

للمؤلف

الغازي مصطفى كمال باشا – يطلب من ادارة اللطائف المصورة

عبد الكريم والحرب الريفية – نفد

الدروز والثورة السورية – نفد

غليوم الثاني – يطلب من مكتبة العرب

040
2
3th
06176460